



(Arab)
DT 70
J8

DT 70

J8

[illegible]

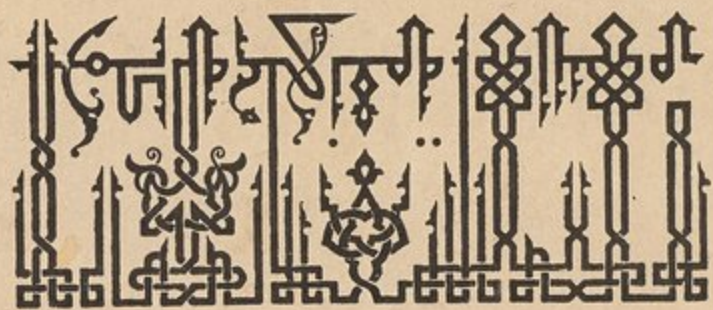
Princeton University Library



32101 074082643







مرحله التكميل

تتمة المسائل المتبقية

الدراسة في علم الفقه والحديث
في سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١٩٠٤ م

عبد الرحمن بن محمد



عن
Jum'ah, Ibrāhīm:

لكنز الهمم

القومية المصرية الإسلامية

بحث في القومية المصرية

وتكون الأمة المصرية الإسلامية

(Arab)

DT 70

. J 8

مقدمة

هذا بحث في القومية المصرية وتكوين الأمة المصرية الإسلامية ، دفعني إلى كتابته دفعاَ شعور قوي بحيوية هذه الأمة وحسن بلائها وبجلالتها لأحداث الزمن ، وإيمان متين باتساق الصلة بين القومية المصرية القديمة والقومية المصرية الإسلامية ، حتى لقد يصح القول بأن هذه القومية الأخيرة ليست إلا مظهرأ من مظاهر الروح الاستقلالي الذي تمكّن من النفس المصرية في كل ما مر بها من أحداث ، فكشّنها من الخلاص من ظلم الأجنبي وجوره .

فهو إذن بحث مزدوج الغاية ، أنشده إثبات حقيقتين كبيرتين : الأولى أنه كان لمصر في عصورها التاريخية المختلفة ، ما يكون عادة للأمة المكتملة الصفات ، من وحدة الأصل والتقاليد ، رغم اختلاف أصناف الناس من أثر هجرة أوفتح ، فقد طبعت البيئة المصرية كلَّ من نزل هذا الوادي الخصب من مختلف الأجناس بطابعها الخاص وصقلتهم بصقالها ، حتى عدَّ نزلؤها على الزمن مصريين بحكم المعاشرة والاشتراك في المصالح والأرزاء . هذه الأمة التي نشأت لها وحدة متجانسة في الأخلاق ، تجلت في طريقة تفكيرها وأسلوب عملها ، والتي اجتمع أبناؤها في كل عصر من عصورها على وحدة من الآمال والأمانى ظهرت في حبّهم لها ، وبذلهم النفس والنفيس من أجل سلامتها واستقلالها وتحقيق السيادة الخارجية لها ، هي التي خصصناها بالبحث غفورين معجبين بجلدها وحمودها واستبسالها !! والثانية — أن تلك السلسلة الطويلة من الأجيال اليقظة المتعاقبة ، قد مهّدت السبيل بجهادها للإسلام ،

الذى جاء علاجاً شافياً لعل هذه البلاد الاجتماعية ، ومنقذاً لها ومُنقِصاً
من حكم الروم الجائر .

ويقينى — أنى استطعت أن أثبت رأى القائل بأن أمة مصرية إسلامية
تكونت غداة الفتح ، لها كل مشخصات الأمم الحية فى السياسة ، والمثل
العليا ، والفن ، والأدب ، وغير ذلك من مظاهر القومية ، هى الأمة التى
تمت لها شخصيتها الإسلامية فى العصر الطولونى ، ودرجت بعد ذلك فى سبيل
الاكتمال والنضوج كل ظاهرة من ظواهر حياتها حتى غدا لها من الشأن
ما لها فى العصر الحاضر .

ولقد كانت طريقي التى لم أحد عنها — وأنا أكتب هذه العجالة —
أن امسّ الرأى السائد ، أو النظرية المعروفة مسّاً خفيفاً ، لا أخوض فى
التفاصيل ، ولا أعمد إلى الأفاضة ، وقصدى من ذلك بقاء الفكرة التى
أعالجها متصلة فى ذهن القارىء لا يصر فيها عنه صارف من توسع أو تدقيق .
والله أسأل أن أكون قد وفقت إلى بلوغ الغاية مما قصدت إليه ، وهو
الهادى إلى سواء السبيل .

المؤلف

القاهرة فى مايو ١٩٤٤

١ - خلقنا للعزة والقوة

نحن أصل ما في هذا العالم من تقدم ورقى - علمنا الأوائل واستدرجنا الأمم الى حظيرة المدنية - مدنيتنا غازية مؤثرة لا متأثرة - نطبع الأمم بطابعنا الخاص - نجمنا السياسى يتألق في سماء العالم المعروف قديما - نحى المدنية من عبث الآريين - نرفض حكم الاجنبى في إلباء وشتم - روح القومية تسرى في نفوسنا مسرى الدماء في العروق - نزع عن أنفسنا نير الغاصب ونسلك في ذلك سياسة « الظروف » - تقابل الحضارة الهلينية بعقل يفهم الحضارة فلا يعادىها - نهادن حضارة الاغريق ونغزوها بخصائصنا كما غزونا حضارة الفرس من قبل - أقطاب الفكر اليونانى تلاميذ للمصريين - اللقاح المصرى فى الفنون الكلاسيكية الأوربية — نمصّر الاجنبى إن لم نستطع أن نجليه عن بلادنا — يقطعة العقل المصرى وادراكه أفاعيل الأجانب .

تحدثنا المصادر التاريخية ، ويؤيدها ما ورد فى « العهد القديم » ، وما عثر المنقبون عليه مسجلا فى صفحات البردى ومنقوشا على الألواح الحجرية التذكارية وعلى جدران المباني المصرية ، مما يرجع بنا إلى أكثر من ٤٠٠٠ عام قبل ميلاد المسيح ، عن مدينة مصرية ازدهرت فى بلادنا مستمدة عوامل نموها من النيل والخصب والصحراء : فمن النيل استمدت الحياة ، ومن الخصب مقومات هذه الحياة ، ومن الصحراء وقاية لنموها الوثيد المنتظم .

قطعت الحضارة المصرية الأولى فى عصور ما قبل التاريخ شوطا طيبا ظهرت آثاره جلية واضحة فى مدينة « ديرا تاسا » ومدينة « البدارى » فى صعيد مصر (١) سابقتين على مدينة العصر التاريخى الذى تحدثنا

عنه المصادر اليونانية واللاتينية، وتزيدها وضوحاً وتدعيماً كتابات البردي والنقوش الحائطية التي أثبتتها في الصخر يدٌ كبيرة المران، انقادت في حركتها لفكر قوى متزن.

ويميل بعض المؤرخين إلى الشك في أن الحضارة المصرية أقدم الحضارات، ويذهبون إلى أن المدينة ظهرت في مصر «وسومر» في جنوب الجزيرة العراقية في وقت واحد، ولكن الذي لا يختلفون فيه هو أن تلك العزلة المنيعَة التي توفرت لمصر، باحاطتها بالصحارى، مكّنت لها من السير المنتظم في سبيل الرقي البشرى أكثر مما مكنت بلاد «سومر»، وغدت مصر بسبب هذه الحماية الطبيعية أقلّ تعرضاً من «سومر» لهجمات البدو^(١) من أعداء المدينة.

هنا — في هذه العزلة المنيعَة، وعلى ضفاف النيل، عرف القوم أساليب المعيشة المتحضرة قبل أن ينجاب الظلام عن أمم الأرض طراً — عرفوا الزراعة والصيد والتجارة والحرف على اختلافها — وصوّروا لنا مُصوِّريهم من هذه النواحي المعاشية صوراً بارزة على جدران القبور تمثل زرعاً وصيداً ونسجاً وتجارةً ومنها مختلفة، وهندس مهندسُهم المباني المدنية والدينية فجاءت غاية في الروعة والقوة؛ وصدر عن العقل المصري الأول أقدم ما عرف العالم من الحكمة والطب والكيمياء العملية، وإليه يعزى اختراع أقدم أنواع الكتابات.

في هذا الخدر الآمن، درجت المدينة المصرية، ونمت وترعرعت، وكان من حسن حظها أن نيطت أمورها بشعب دائب الجد، ذكي.

وقدر لهذه المدينة بحكم سبقها أن تكون أمّاً لتلك المدينت الوليدة التي ظهرت غداة نضوج المدينة المصرية، في كثير من بلاد الشرق القريب، وجزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي - فمن مصر سرى نور المدينة إلى سوريا والجزيرة، ومن ثم بطريق مباشر أو غير مباشر إلى القوقاز والتركستان والهند، وجزيرة كريت وما وراءها من جزر بحر «ايجه» ثم إلى اليونان فأوروبا بعد ذلك (١).

ولعبت المدينة المصرية دورها الجدى عند ما اتسعت رقعة الامبراطورية، فشملت الشرق الأدنى وضمت كثيراً من أطرافه في حدود امبراطورية مصرية واسعة النطاق، رعاها وسهر على شئونها ملوك شداد - ففي ظل سطوة «طوتميس الثالث» و«رمسيس الثاني» من ملوك الدولة الوسطى، وفي حكم الملك «نخاو» من فراعنة الدولة الحديثة، بلغت الحضارة المصرية أقصى اتساع لها متمشية مع رقعة الامبراطورية - حيث صحب الغزو السياسى غزو مدنى أثر في الشعوب المجاورة تأثيره المنتظر، فاتخذت البلاد المفتوحة مُشَل المصريين العليا في الدين والحياة؛ وأدّت الأساطير المصرية مهمتها في تحضير تلك الأمم وترفيها واستدراجها إلى حظيرة المدينة.

وأتيح للمدينة المصرية أن تبدو في هذه الفتوحات بخصائصها القوية، وما في طبيعتها من قوة الغزو والتأثير؛ وترعّمت مصر منذ العصور الأولى بلاد الشرق الأدنى، وظل الحال كذلك حيناً من الدهر ضعف فيه نفوذ مصر السياسى على تلك البلاد - فلم يضعف سلطانها المعنوى عليها، بل ظل باقياً فيها يساعد على انضاج المدينت الوليدة واكتماها. ولم تفقد الحضارة

المصرية قط حيويتها ومقدرتها على مغالبة الأحداث السياسية ، ولم ينس المصريون يوماً أنهم أصل ما في هذا العالم كله من رقى وتقدم .

وانه لما يدعو إلى كثير من الغبطة ألا تتمكن الأمم التي أغارت على مصر ، وأولها (الهكسوس) ملوك الرعاة ، من كسب قلوب المصريين بحال ، وفي ذلك يقول « ولز » (١) : —

« ان هؤلاء الفاتحين من الساميين لم يندجوا قط في المصريين ، بل لقد كانوا دائماً يُرْمَقُونَ بعين الكره كأجانب متبررين » . — قضى على سلطانهم « أحمس » من أمراء الصعيد حوالى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد في ثورة عامة .

ويعلق « ولز » على ذلك بقوله : « ان السومريين قبلوا الجنس السامى الذى أغار عليهم ، واندجوا فيه اندماجا ، ونشأت من جراء ذلك الامبراطورية البابلية سامية اللغّة والطباع والعادات ، بينما رفض المصريون الخضوع للجنس السامى ، ونجت بذلك مدينتهم من خطر محقق كان يهددها بالزوال ، أو كان على أقل تقدير يحد من نموها المثمر المضطرد » . وتجلّت في الثورة على « الرعاة » أول روح قومية مصرية ، فما أن فطن المصريون إلى أنهم بهذا الغزو قد فقدوا الحرية التي كانوا فيها ينعمون وتطيب لهم بها الحياة وتزدهر ، وتوثق أكتلها في كل ناحية من النواحي ، حتى هبتوا هبة رجل واحد ، مجتمعة قواهم ، متهاككة على الانتقاض على ما خلفه هؤلاء الهمج من آثار — وسرعان ما ظهرت نتائج هذه النهضة القومية الجديدة في تكوين جيش مصرى قوى يشتعل حماسه للقضية المصرية .

استخدمت فيه الخيول وعربات الحرب في قطع فيافي «سينا» و«فلسطين» حتى وادى الفرات — وتبلغ بعد ذلك بزمان يسير جيوش مصر أرض الجزيرة، ويتألق في سماء العالم المعروف بنجم ملوك الدولة الوسطى، وتقرع الاسماع أسماء طوطميس، و«أمينوفيس» و«حتاسو» ثم «رمسيس»، ويدخل العالم على إثر ذلك في فترة تقرب من الألف سنة، كلها صراع وحروب بين المدينتين العريقتين في مصر وأرض الجزيرة، هو في عرف الحياة تنازع بقاء، الغلبة فيه للقوى. وتظهر في الأفق السياسي أسماء ملوك آخر من «نينوى» و«أشور»، وتتقارع سيوفهم مع سيوف الفراعنة، ويطمع الطامعون في امتلاك مصر بعد انقضاء عصر الفتوة فيها بانقضاء الأسرتين السابعة عشرة والتاسعة عشرة — ويقود «سرجون الثاني» بن «سنأخريب» جيشاً يفتك به الطاعون قبل أن يدرك مصر، ثم ينجح حفيده «آشوربانيبال» فيما فشل فيه سلفه، ويستولى على مصر حوالي ٦٧٠ ق م، ويُبدل منها سلطان الآشوريين — ويشهد العالم خطراً جديداً بقيام العنصر الآري وتهديده البلاد المتمدنة منطلقاً من عقاله فيما جاور «بحر قزوين» من شماله الشرق وشماله الغربي؛ ويسمع العالم لأول مرة أسماء «الميدان» و«الفرس» و«السُّيت» و«الأرمن»، و«السمريين»، و«الفريجيين»، و«الهليينيين»، ويقتصر شرور المتبربرين في شرق العالم المتمدنين على تهديد حدوده — أما في غربها فيتمكنون من الاستيلاء على المدن العامرة وطرد سكان بحر ايجه، والقضاء على ما كان لهم من مدينة — ويفر «الايحيون» تحت تأثير ضغط هؤلاء إلى «دلتا مصر»، يبتغون فيها أمناً، فتضيق بهم وتجليهم عنها، وينزل أقوام من سكان آسيا الصغرى إلى البحر هرباً من غارات الآريين،

ويلتمسون في غابات إيطاليا الوسطى وطناً لهم ، وهؤلاء هم « الاتروزيون »
أساتذة الايطاليين في المدنية ، وينتجع فريق من أولئك الآسيويين سواحل
البحر الأبيض الشرقى ، فيكون من نسلهم « الفلسطينيون » .

وتسلم مصر من هذه الهجمات الآرية كما تسلم منها أرض الجزيرة إجمالاً
حتى عام ٦٠٠ ق.م ، ولكن البرابرة ظلوا يهددون الحضارة التى
ازدهرت فى أرض الهلال المخصب بالزوال ، وتركز ربح المدنية فترة
من الزمن ، وتبقى على الرغم من ذلك جذوتها كامنة فى معقل الحضرة — فى
« مصر وأرض الجزيرة » على السواء . وتدخل « الأهرام » فى ألفها
الثالث ، وتزار مصر من أجلها كما تزار اليوم ، ويُعجب الزائر بروعة البناء
وضخامته ، وبالقوة التى استطاعت أن تعليه إلى هذا الحد من الارتفاع ،
كما تأخذ روائع الفن المعمارى الذى أبدعه بناء الدولة الوسطى فى الكرنك
والاقصر وغيرهما من بلاد مصر — ولا تعوزنا الوثائق التاريخية عن زهاء
الحضارة المصرية فى هذه الحقبة من الزمن الذى عصفت فيه غزوات
المتبررين بالعالم المعروف فمحت من معاملة ما تحت ، وصمد على الزمن ورسخ
قدم المصريين القوي الذى خطا بالمدنية أول خطواتها الموفقة ، ثم درج بها فى
سبيل النهوض والاكتمال .

ولقد يقال إن مصر خضعت للأشوريين حين نزلت جنود بانيبال
أرض مصر السفلى ، ولكن النخوة المصرية التى رفضت بالازدراء والاحتقار
الشديدين حكم الرعاة من الهكسوس ، أثبت هذه المرة أيضاً إباء الشَّم أن
تستكين أو تلين لها قناة ، فسرعان ما خلعت البلاد عن نفسها سلطان بانيبال
بزعامة الملكين القويين « بسماتيك الأول » و « نخاو الثانى » من ملوك

الدولة الحديثة اللذين ردا الآشوريين على أعقابهم ؛ وتمكن ثانيهما من أن يعيد إلى مصر شيئاً غير قليل من سيادتها الخارجية . وتضافرت على القضاء على الآشوريين جهود المصريين من الغرب والميديين من الشرق ، وسلمت مصر مرة ثانية من النفوذ الأجنبي ، ذلك النفوذ الذى خلقت تمقته أشد المقت ، وترفضه فى أباء وأنفة .

وكتب للشعوب الآرية أن تسود الأمم السامية بعد نضال وتاريخ طويلين ، وجلس على عرش فارس منهم أباطرة حكموا ملكاً متباعد الأطراف، شمل كلديا وشمال الجزيرة وآسيا الصغرى وسوريا وبلغ مصر غرباً وحدود الهند شرقاً . ودخل « قبيز » مصر فى حكم « بساتيك الثالث » بن « أحس الثانى » بمساعدة أحد الخونة من الأغريق المقيمين فى البلاد ، واستولى على « منف » عام ٥٢٥ ق.م. وانتهى بذلك الغزو حكم الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية ، ولكن عوامل الطبيعة الغاضبة تضافرت هذه المرة مع كراهية المصريين لهذا الغزو الآرى ، فعملت بالاشتراك مع روح القومية على أحباط حملات « قبيز » إلى قرطاجنة وسيوة والنوبة، وجن جنون الملك الفارسى من اجتماع كلمة المصريين عليه ، فطغى وبغى، ونكل بالمصريين ، وعبث بمعبوداتهم وأهان رجال الدين ، وجرح العزة القومية فى أعلى صورها — وهكذا كان دخول « قبيز » مصر بفعل الخيانة الدنيئة — أكثر مما كان بفعل الاستسلام — والحق أن المصريين ما كانوا ليسلموا القياد لهذا الفاتح الجديد لولا ما كان من دهائه وسعة حيلته ، فقد جعل فى مقدمة جيشه آلافاً من القطط والكلاب ، وكان المصريون يقدسونها ، فلم يسددوا إليها سهماً ، مخافة سخط الآلهة وغضبها ، وهكذا منعهم تفانيهم فى

احترام العقيدة عن القتال ، ودعاهم إلى التسليم المؤقت — فلم يدخل الفرس أرض مصر بأرادة أحد ، ولم يقبل المصريون حكمهم راضين ؛ وعلى النقيض مما فعل « قمبيز » انتهج « دارا » الأول سياسة اللين ، فاحترم عقائد المصريين بقدر ما أساء سلفه إليها ، وأكثر من أعمال التعمير بقدر ما خرب قمبيز ، ولكن الشعور الوطنى المصرى كان رغم ذلك يغلى كالمرجل غير منخدع بالمظهر الكاذب عن حقيقة الحال ، وما لبث « خباش » أحد الأمراء الوطنيين أن طرد الفرس من مصر وأجلاهم عنها عام ٤٨٦ قبل الميلاد .

ولكن النضال على السيادة ظل حيناً من الدهر مستحكما للأوصريين الأمراء الوطنيين يهددهم الغزو الفارسى من الخارج ، واستطاع « اجزر كسيس » الأول ملك الفرس أن يمتلك البلاد مدة لم يطل أمدها ، حيث تمكن « أمروت » المعروف باسم « أمرتيوس » من مواطنى « سايس » من طرد الفرس من البلاد عام ٤٠٥ ق . م . وعاد الفرس إلى دخول مصر للمرة الثالثة فى حكم الأسرة الفرعونية المتممة للثلاثين ، عام ٣٤٠ قبل الميلاد ، ولكن حكمهم بها لم يدم طويلا إذ تمكن الاسكندر المقدونى فى صراعه مع الدولة الفارسية من أن يقضى على سلطان « دارا » الثالث عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، ودخل مصر بمعونة بعض اليهود . والظاهر أن المصريين الذين أعياهم النضال مع الفرس حقبة طويلة من الزمن — ولم يكونوا قد أفاقوا بعد من وعاء الحرب ومتاعب الجهاد المتواصل ، لم يقاوموا الفتح المقدونى مقاومة تذكر — ودخلت مصر فى حيازة الاسكندر ، وصانع هذا أهل مصر ، وقرب من نفوسهم المجيدة ، وكانت وسيلته فى ذلك استمالة

رجال الدين ، وكانوا مفتاح هذه البلاد ، وبغير معونتهم لم يكن من اليسير خضوع مصر لحكم الأجني . ويلوح أن البلاد التي كان قد فت من قوتها طغيان الحكم الفارسي وجبروته ، قبلت حكم العاهل المقدوني خلاصاً من حال سيء إلى حال قد يكون فيها بعض الخير . وكانت الحضارة الهلينية التي حملها الاسكندر أينما ذهب في فتوحاته فتية ، وكانت سياسة الفاتح المقدوني مزدوجة الغرض ، تتلخص في أن يغزو العالم المعروف فيخضعه إخضاعاً سياسياً ، ثم يُغرِّقه بالحضارة الهلينية التي آمن الاسكندر بتفوقها على ماسواها من الحضارات ؛ ويرجع أن تكون الحضارة المصرية المكتهلة قد تأثرت بهذا التيار الجديد ، ورضخت لناموس البقاء ، ورغبت في أن تأخذ من هذه المدنية الناشئة ما قد يكون فيها من عناصر القوة والحياة .

ووجد المصريون أنفسهم أمام قوة حربية لا سبيل إلى ردها ، ذلك فضلاً عن أنه كانت بالبلاد جاليات اغريقية تسكن الدلتا ، وفي الجيش جنود مرتزقة من الأغارقة ، فلم يكن من العسير والحال كذلك أن تستولى جنود الاسكندر على دلتا مصر .

ولننظر الآن إلى مدي ما أثّر الفرس في حياة المصريين ، وما خلفوا بها من آثار — فانتا واجدون انهم جلوا عنها دون أن يتركوا بها أثراً يذكر ، في حين أثرت الحضارة المصرية فيهم أثرها المنتظر ، فتركت في عمارتهم آثاراً ملحوظة مازال نراها في مباني « پرسپولیس » ، عاصمة الفرس ، حيث أقيمت الأبواب الكبرى لمداخل ساحة پرسپولیس على النمط المصري ، ولا سيما « عتب الباب » الذي تأثر « بالاعتاب » المصرية تأثراً واضحاً ، وكذلك بعض

التفاصيل المعمارية التي تشاهد في الأعمدة الفارسية التي أخذت من الأعمدة المصرية حليتها وزخارفها النباتية والحيوانية . وسواء أكان التأثير المصري قد أدرك العمارة الفارسية بطريق مباشر ، أى بسبب استقرار الفرس في مصر فترة من الزمن ، أو بطريق غير مباشر ، بمعنى أنه انتقل إلى بلاد فارس بطريق الآشوريين والكلدانيين الذين تأثروا بدورهم بالفن المصري المعماري ، فالنتيجة واحدة بالنسبة لنا ، وهى دالةٌ من غير كبير عناء ، على أن مصر ظلت رغم أحداث السياسة ، قوة مؤثرة في ميادين الفكر والفن ، كما ظلت مستشعرة سيادتها المعنوية على شعوب الشرق الأدنى ، رغم خضوعها فترات قصيرة لهذه القوة السياسية أو تلك .

وقد أدت اليقظة الفكرية التي ظل المصريون يحسونها ويعتزون بها إلى بقاء الشعور القومي حيًّا فيهم . . . ومن الأمور التي لا تحتاج إلى تدليل كبير ، أن شعور القومية ملازم للرقى الفكرى ، وأن الجهل يقتل روح القومية ويمحو كل اعتزاز بالجنس والحضارة والوطن — والمعروف أن الحركة الفكرية المصرية ظلت قائمة في أشد عصور مصر كفراراً بأحداث السياسة — حقاً لقد شهدت البلاد في أخريات أيام الفراعنة شيئاً من الهوان السياسى لم يتطرق أثره السىء إلى معقل الثقافة المصرية البهجة في « جامعة أون أو عين شمس » تلك الجامعة التي ظلت تشع منها معرفة مصرية صميمة ، ناهضت المعارف الهلينية التي انتقلت إلى الاسكندرية وتركزت فيها .

فعلام يدل ذلك — ؟ ان دل ذلك على شىء ، فدلالته كبيرة على أن المصريين لم يسلبوا زمام الفكر للأغارقة حين أسلبوا زمام السياسة — وكيف يسلم المصريون زمام الفكر للأغارقة ، وهم أصل ما انتهى إلى هؤلاء من علم

ومعرفة ! — ولا يفتأ التاريخ يروى أن نفراً من زعماء الفكر اليونانى نهل من جامعة «أون» علماً وعرفاناً . وسواء صح أن يكون أفلاطون ، قد درس في مدينة الشمس على أساتذتها من السكمان ثلاثة عشر عاماً أم لم يصح ، فذلك معتقد المصريين على كل حال ، ذلك فضلاً عما يكاد التاريخ يجزم به من استفادة المشرع اليونانى «صولون» أصول طرائقه في التشريع في جامعة عين شمس .



وكان موقف المصريين من الاستعمار المقدوني والثقافة الهلينية والفن الهليني موقفاً تجلت فيه العصبية المصرية إلى أقصى درجة ، فلم تجتمع قلوب المصريين على حب الغاصب المقدوني ، كما لم تجتمع قلوبهم على حب من سبقه من الغاصبين سواء بسواء ، ولم تسع نفوسهم العلم اليونانى الاسكندرى في الوقت الذى كان لهم فيه علم مصرى بحت ، يعيه السكمان ويلقنونه تلاميذهم في «أون» بمعزل عن أغريق الاسكندرية ونقرانس وغيرهما من بقاع الدلتا ، ولا استطاع الفن اليونانى أن يؤثر على فنون البلاد الأصلية ، بل على العكس من ذلك لم يجد فن* اليونان في هذا البلد حياة إلا بانتحاله بعض شخصية الفن المصرى ، وبالمثل لم يقتدر للفن الرومانى أن يحيى في مصر بغير اللقاح المصرى . فهذه معابد فيلة ودندرة وادفو ما تزال شاهدة على تأثير الفن المصرى في فنون اليونان والرومان . وتفسير هذه الظاهرة الفنية يلتبس في قوة الفن المصرى وطبيعته الغازية أكثر مما يلتبس في اصطناع البطالسة والرومان فنون البلاد تقرباً من أهلها وزلفى ، فلم يكن هؤلاء وهؤلاء بد من الخضوع لسيطرة البلاد الروحية عليهم ، وسواء جاز على المصريين اصطناع هؤلاء الأجانب للقومية المصرية أو لم يجز ، ومعظم الظن أنه لم يرقهم ولم يلبهم عن حقيقة الأمر ، فان القومية المصرية فعلت

فعلها القوى الصامت — برفضها ثقافة الفاتحين واعتزازها بثقافتها الخاصة ،
وبتأثيرها الواضح في فنون اليونان ، ذلك التأثير الذى يتجلى في الطراز
المختلط الأصول الذى عرف بطراز العمارة البطليموسى .



أبت المبادئ الأخلاقية المصرية بتأثير العقيدة الدينية أن يقبل
المصريون أى نوع من أنواع المذلة السياسية طوعية واختيارا ، فقد كانوا
يرون في المذلة السياسية هوانا ليس بعده هوان ، فان يكونوا قد أسلموا
القياد لحكم الاسكندر ، فليس معنى ذلك أنهم نزلوا عن آرائهم القومية أو تخلوا
عن أفكارهم السامية ومثلهم العليا في الدين والوطن ، وانما كان ذلك استسلاما
لظروف السياسة العالمية موقوتا ليس غير ، وتخلصا من السخرة التى فرضها
عليهم الحكم الفارصى ، وشغفا بتنسم الحرية التى فقدوها بسببه حينما
من الدهر ، فلم تقبل الوطنية المصرية الخضوع للحاكم الجديد إلا خلاصا
من حال إلى حال لعلها تكون خيرا من الأولى .

وحكم البطالسة مصر بعد الاسكندر ، فلم يستقم لهم الحكم إلا بعد أن
تشبهوا بالفراعنة في مظهرهم وطرائق معيشتهم . وقد أنفق هؤلاء جهدا
كبيرا في سبيل الاندماج بالمصريين ، فحال دون ذلك عاملان أساسيان :
أحدهما ، شعور السيادة الذى ظل يلزم العنصر الأغريقى الفاتح فباعدينه
وبين المصريين ، وثانيهما ، ما فطر عليه المصريون من ذكاء استطاعوا به أن
يدركوا أفاعيل البطالسة واصطناعهم القومية المصرية — فعلى الرغم من
ازدهار الحياة العامة في مصر في أيامهم ، وقيام جامعة الاسكندرية ، واتخاذهم
الفن المصرى المعماري لبناء معابدهم ، واحترامهم للعقائد الدينية المصرية ،
وابقائهم على الثقافة المصرية البحتة خارج الاسكندرية — على الرغم من

ذلك كله ، نفر المصريون منهم ، وعدوهم دخلاء مغتصبين لا يجوز الخضوع لهم أو الازعان . وانتهى حكم البطالسة بما فيه من خير وشر ، وقضى بذخ كليوباترة واستهتارها وتقلبها في أحضان السياسة الرومانية بدخول الرومان مصر ، وحكم هؤلاء الرومان البلاد حكماً سياسياً خشناً ، لا أثر فيه يذكر لثقافة أو علم ، فلا نكاد نعلم خلال القرنين الأولين من الميلاد شيئاً عن حركة مشمرة في ناحية من نواحي النشاط الفكري ، رغم ما عرف عن بعض حكام الرومان في مصر من تشبه بعواهل البطالسة في حمايتهم للعلم والأدب . والحق أن نظم الامبراطورية الحربية لم تكن تسمح بحرية فكرية قديكون من شأنها عرقلة النظم التي وضعت وأحكمت في روما لسياسة الامبراطورية وسلامة بنيانها . وعرف عن هذا العصر الروماني كثير من ألوان العنف والبطش بقصد صيانة كيان الدولة ، فأخذت فيه الأنفاس ، وعذبت الأبدان واستلبت الحريات ، وبلغ الظلم المدى ، ووقع في النفوس موقعاً سيئاً ، وغدت مصر بقرة حلوبا يرام حلبها ولا يرام غذاؤها !

وقد يكون من المفيد في بحثنا هذا أن نتبع التاريخ السياسي للامبراطورية الرومانية تتبعاً موجزاً نخلص منه إلى علاقة « مصر » بالامبراطورية ، ونصور الحالة العامة فيها تصويراً يساعدنا على فهم الأحداث الخطيرة التي امتازت بها هذه الحقبة من الزمن ، والتي كان من شأنها أن أنضجت في الشعب المصري شعوراً قومياً متأجباً في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع — هو نتيجة لجهاد قرون ستة ، أبلى فيها المصريون بلاء حسناً أكدوا به ما عرف عنهم من الأباء ورفض الضيم وطول الأناة والصبر على المكاره والانتصار آخر الأمر — والفوز بالحرية المسلوبة .

٢ — محنة و جلال

الرومان يحكمون الإمبراطورية حكماً حريياً — تختفي منذ الحفقات الأخيرة من القرن الثالث الميلادي مبادئ الديمقراطية — إرادة الإمبراطور قانون فوق القانون — سيادة الآراء الشرقية على البلاط الروماني — انقسام الإمبراطورية إلى شرقية وغربية — بدخ الدولة الشرقية وإسرافها بتأثير المبادئ الفارسية — استنزاف الأموال وفقر الأهاليين في كل مكان ولا سيما مصر — الكشف كل حظ المواطنين المصريين من هذه الحياة — السياسة الرومانية تؤدي إلى قلة إكثرت الناس بمباشرة أعمالهم الخاصة — عدم الاستقرار الناشئ عن ذلك وأمره في إضعاف الصلة بين القوم والوطن — انعدام وجود العناصر النشطة التي تساعد في إدارة الدولة .

خرجت الدولة الرومانية من القرن الثالث الميلادي دولة انتصر فيها سلطان الإمبراطور الشخصي على المبادئ الديمقراطية التي كانت ممثلة في السناتو الإيطالي . وقد أراد لها دقلديانوس (٢٨٤/٣٠٥ م.) أن تكون كذلك ، فجرد مجلس السناتو من سلطته ، وأحاله نوعاً من المجالس البلدية ، له الإشراف على روما ، يدير دقة الأمور فيه رجال طاعنون في السن — وبهذا طويت صفحة الحكم الديمقراطي الروماني ، وغدا الإمبراطور الحاكم الفرد ، واستبد بأمور الدولة لا يحد من سلطانه أحد ، وأصبحت الأداة الحكومية حربية في جملتها ، شرقية المظهر والروح والكيان ، واتخذ الإمبراطور الروماني لنفسه جميع مظاهر السلطان الشرقي ، فلبس الملابس المشاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، واعتلى العرش الرفيع وأصبح دون الوصول إلى أعباءه الانحناء وتقييل الرغام .

وثابت أن ذلك كان بتأثير البلاط الفارسي (١) فعنه نقل القواد الكثير

من تقاليد الشرق وعاداته وعقائده . ولا غرو ، فقد انتشرت في أنحاء العالم الرومانى عبادة الاله الفارسى «مثراس» ، وشهد العالم فى تلك الآونة علامات اندماج بين الشرق والغرب تذكر بسياسة الاسكندر الأكبر قبل هذا التاريخ بقرون ستة أو تزيد ، سياسة أدماج الغرب فى الشرق أو سياسة التزاوج بينهما . وسما شخص الامبراطور ، وارتفع إلى مرتبة قدسية ونعت باسم « الشمس التى لا تقهر » وأصبح الاعتراف بصفته الدينية فرضاً لازماً على كل مواطنى الامبراطورية لا سبيل إلى نكرانه ، الويل كل الويل لمن جحد ذلك أو غض من شأنه ، وبهذا الروح الاستبدادى الذى ينسبه « برستد » إلى الشرق ، قضى على ما كان فى العالم من ديموقراطية الحكم ، وهى ذلك التراث النفيس الذى جاهد الانسان من أجله آماداً طويلة وأنفق فى سبيل الحصول عليه أعز ما ملك ، وفى سبيله عذبت أجساد وزهقت نفوس ، — قضى عليه انحياز الامبراطور نحو الشرق بتأثير العداوة المريرة التى كانت بين الفرس والروم أول الأمر ، تلك العداوة التى قضت بأن يهجر الأباطرة « روما » ، وأن ينتجعوا « نيقية » فى آسيا الصغرى ، والتى كان من آثارها المباشرة سيادة كثير من الآراء الفارسية وسيطرتها على عقول الروم بحكم الاحتكاك والتلاحم .

ولما اضطر الامبراطور إلى افراغ همه فى الفرس ، واتجه لذلك نحو الشرق وركز سياسته فيه ، عين من قبله حاكماً يرعى شئون الامبراطورية فى الغرب جرياً على تقاليد القنصلية الرومانية التى كانت تجيز هذا وتقره . وسكن ذلك الحاكم « ميلان » فى وادى البو ، وكانت النتيجة المحتومة سواء أرادها دقلديانوس أم لم يردها ، انقسام الامبراطورية بذلك إلى شرقية وغربية . وضع دقلديانوس قبل موته نظاماً لحكم الامبراطورية قرر فيه أن يكون

لها أمبراطوران يليهما في السلطة قيصران ، يتولى كل منهما سلطة العاهل
الأمبراطورى لمجرد موته ، وقد تضمن هذا النظام العقيم فيما تضمن انقسام
الأمبراطورية إلى أربعة أطراف ، يتولى الاشراف العمل على كل منها عامل
أو حاكم ، وانحلت الأمبراطورية فيما دون هذه الأقسام الأربعة الكبرى
إلى ولايات تقرب من المائة ، يحكم كل منها وال يساعد عدد من الموظفين .
وإلى جانب ذلك كان النظام الاقتصادى لهذه الدولة بالغاً من الفساد درجة
قصوى ، فكان لزاماً على بلاد الأمبراطورية أن تمد الحكومة والجيش بما
يلزمهما من مال ، فضلاً عما كان يتطلبه البلاط الأمبراطورى من البذخ
والاسراف الشديدين . وبما كان يدعو إلى البذل وبسط اليد في غير طائل ،
قيام أربعة أباطرة ، هم عواهل الدولة فيما آلت إليه الحال نتيجة للنظام
العقيم الذى وضع دقلديانوس أساسه قبل موته ، لكل بلاطه الخاص ؛
سرت بينهم عدوى التنافس فى الأبهة وروعة السلطان ، وكانت
العاهلية الأولى ، عاهلية « الشرق » تضم مصر وآسيا الصغرى وجزءاً
من أوربا يشرف على البحر الأسود وبحر مرمرة — وعاهلية « الليركوم »
وتضم دول البلقان ، وعاهلية « إيطاليا » وتضم إيطاليا والنمسا وشمال
أفريقية (طرابلس وتونس والجزائر) ثم عاهلية « الغال » وتضم فرنسا
وانجلترا واسبانيا والمغرب الاسباني — دعنا تمثل ما كان يتطلبه البلاط
الأمبراطورى الرومانى من المال ليجارى الأبهة الشرقية المسرفة التى اتخذها
منذ مال محور السياسة الرومانية نحو الشرق ، وما كان يجب أن يتوفر لبلاط
كل من العواهل الآخرين من مظاهر الترف والبذخ — ثم ما كان يجب أن توفره
الدولة لمواطنيها وهم عديد يفوق الحصر من « الخبز والأدم » ، نقول الخبز
والأدم — لأن الكفاف كان كل حظ المواطنين من هذه الحياة ، فلم يكن من

برنامج الدولة السهر على سعادة الأهلين أو جلب الرفاهية لهم ، فذلك كان أبعد ما يكون عن أن يخطر ببال الامبراطور أو الحاكم أو عامله . وكان الأمر على النقيض من ذلك لسوء حظ الأهلين ، فبدلاً من أن تخفف الضريبة عن هذا الجمهور الفقير المعدم ، ارتفعت قيمتها من وقت إلى آخر حتى غدت عبئاً على كاهل الأهلين . وتنوعت الضريبة وفرضت على أنواع الملكية المختلفة ولم ينبج منها من مقتنيات الأفراد إلا القليل النادر .

كان البطالسة يفرضون الضرائب على جمهور المصريين بقصد التمكن من الانفاق على الاداة الحكومية البطليموسية والبلاط البطليموسى ، وكان دخلهم من هذا السبيل ينفق كله فى مصر ، وانما كان يرسل إلى روما ثم إلى بيزنطة من بعدها ، دون أن يسترد المصريون فى مقابله شيئاً . وكان من سياسية البطالسة حماية بعض المنتجات الأهلية ، ولذلك فرضوا الرسوم الجمركية على الواردات التى توجد لها نظائر فى داخلية البلاد ، على خلاف ما كان الحال فى العهد الرومانى الذى كان هم الحكومة فيه استغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال ، حيث رفعت القيود الجمركية على الواردات ، وهكذا بدل الرومان نظام الضرائب البطليموسى الذى روعيت فيه مصلحة البلاد ووضعت فى الاعتبار الأول ، وحولوه إلى نظام غايته استنزاف الثروة الأهلية . وبما يبعث على الأسف أن هؤلاء الرومان كانوا يشتطون فى جمع الضرائب كلما ساءت حالة البلاد الاقتصادية . وكان مقدار ما يجب أن يجبى من مصر كل عام لينصب فى الخزان الامبراطورية أمراً موكولاً لرأى الامبراطور ، يقضى فيه قضاءه سنة بسنة — فكان يحدد مقدار الضرائب ويضع الخطة التى تجبى بها ، وكانت أوامره

في هذا الصدد ترسل إلى عامله في مصر ومن ثم تنفذ إلى من هو دون هذا العامل أو الحاكم مرتبة (ستراتوجوي) ثم إلى الملتزمين (سيتولوجوي) في المدن والقرى والدساكر ، وينطلق على الفور جيش جامعي الضرائب يحصلها في غير هواده . وكانت أهم هذه الضرائب ضريبة القمح تجمع من الفلاحين (عينية) ، وكانت ترسل إلى روما لاطعامها ، وكان لها سجلات في القرى يدون بها مقدار ما يجب أن يؤديه كل زارع ، وقد روعي في هذه الضريبة بعض العدل ، خففت عن من لم يصل الفيضان العميم أراضيهم ، ولكن الحكومة لم تغفل عن من قصروا في دفع الضريبة بسبب انخفاض منسوب المياه ، بل كانت تعوض نفسها عن ذلك في العام التالي ، وكانت لها رقابة دقيقة على الأراضي مخافة أن يغرقها الأهليون أو يحرقوها هرباً من زراعتها .

ويصف ملن (١) حالة البلاد في العصر الروماني وصفا نلس فيه بشاعة الحكم وانحرافها عن سنن العدالة وجنوحها إلى جانب القسوة والظلم ، فكانت الدولة لا تعرف لمصر حقوقاً عليها وإنما تعرف لها واجبا حتم أدأوه تؤديه البلاد راضية أو كارهة — ذلك هو تمويل الدولة ومدّها بما يلزمها من القوات . وهكذا كانت حكومة بيزنطة لا تنظر إلى مصر إلا أنها اهرأ واسعة مليئة بالحب ، تنفذ منها ضريبة القمح السنوية التي نص عليها قانون جستنيان فيما نص من التزامات . وتجلت سياسة الجور الاقتصادي ، فيما عدا ضريبة القمح العينية الكبرى هذه ، في فرض الضرائب فرضاً شاملاً على كل شيء تفع أمره أو عظم ، حتى لم يكذب منها مواطن من مواطني الدولة مهما بلغت به الفاقة !!

وكان لهذه الطريقة في فرض الضريبة أثره في نفوس الأهليين ، فقد نفروا من الروم ومن سياستهم الاقتصادية الجائرة التي دلت على قصور ظاهر في التشريع ، فأعطت للمواطنين سلاحاً يطعنون به الدولة في صميمها ، إذ مكنتهم من الاطلاع على مفاصد هذا الحكم ، وأدراك عيوبه ، وأتاحت لهم فرصة للتمليل منه والضييق به .

ولم يكن هذا النظام الاقتصادي الفاسد سبب النفور الوحيد بين الحاكم والمحكوم ، بل لقد كانت هناك فوارق كثيرة باعدت بين المصريين وبين حكامهم من الرومان ، وجعلت من العسير بقاء الحال على ما كانت عليه ، ومكنت المصريين الوطنيين من الخلاص جملة حينما لاحت لهم الفرصة المناسبة . وكان الملتزمون يجمعون ضريبة القمح في أهراء واسعة ، ويكلفون أصحاب الأبل والخمير أن ينقلوا إلى المراكب الراسية في النيل أو القنوات القريبة ما تجمّع من القمح على ظهور دوابهم ، وكان إيصال الحبوب إلى الاسكندرية موكولاً إلى طائفة من متعهدي النقل ، عليهم أن يسلموها إلى موظفي الأهراء الإمبراطورية في «نيابوليس» ومن ثم تصدر في السفن إلى روما . وكانت نفقات النقل من الأهراء القروية إلى نيابوليس تلقى على كواهل السلطات الملتزمة التي أرسلت الضريبة ، ومن ثم نستطيع أن نفهم أنها كانت لا بد راجعة على الفلاح المسكين في النهاية .

أما الأراضي التي لم تكن تزرع قمحاً ، كأن تزرع ثماراً أخرى كالفاكهة أو الخضر أو الكروم أو الزيتون أو التين ، فكانت تدفع ضريبتها نقداً ، ويقوم على جباية هذه الضرائب ومنها ضريبة القمح نفر يقال لهم «الپراكتورس» . ومن أنواع الضرائب ضريبة فرضت على الناس في مقابل إعفائهم من

السخرة في كرى الترع وتعبيد الطرق وتقويم الجسور .

وثبت من العثور على بعض القصاصات (١) أنه كانت تدفع ضريبة على الأملاك الخاصة وأهمها المنازل ، وفرضت الضرائب على الحيوانات المنزلية ، وتنوعت باختلاف أنواع الحيوان وأهمها الضريبة على الخنازير وعلى الأغنام والجمال وعلى الثيران والماعز والحمر والخيول .

وفرضت الضرائب أيضاً شهرية على التجار وأصحاب المهن ، وتنوعت بتنوع المتاجر ، فكانت ضريبة الزيت غير ضريبة الروائح غير ضريبة الخبز غير ضريبة الصباغة غير ضريبة الجعة غير ضريبة النسيج الخ... وفوق هذه الضرائب المفروضة على التجارة والحرف اختصت بعض البلاد بضرائب مضاعفة لشهرتها بإنتاج صنف معين من المنتجات الزراعية أو الصناعية .

واعطى بعض الافراد حق احتكار الصناعات والمتاجر في بلد معين لمدة من الزمن نظير دفع مبلغ محدود من المال لخزينة الدولة — بمعنى ان ذلك المحتكر (وهو يشبه الملتزم في الأرض الزراعية) كان يتقاضى أتاوة من الصناع أو التجار كل عام ، في نظير ما يقوم بدفعه عنهم من المال إلى خزينة الدولة .

ومن أهم الضرائب ضريبة الرؤوس ، واختلفت قيمة هذه الضريبة من بلد إلى آخر من بلاد القطر ، بل اختلفت في البلد الواحد ، وخفضت على بعض ذوى الامتياز ، ووقع العبء الأكبر من هذه الضريبة على الوطنيين . ومن تمتعوا بخفة هذه الضريبة خفة تشبه العدم ، سكان الاسكندرية من العناصر الأجنبية . واعتادت الحكومة أن تحصى السكان كل أربع عشرة سنة لضبط العمل .

(١) عثر في الفيوم على وثائق تثبت وجود هذه الضريبة

ومن الضرائب أيضاً ضريبة «التاج» ، وكان أصلها في العصر البطليموسى هدية تقدمها بعض الطبقات الارستقراطية للملك في مناسبة معينة ، فلم تلبث أن تحولت إلى ضريبة واجبة الأداء تخفف منها «الارستقراط» وألقوا عبثها على الاهلين (١) . وتشبه الضريبة السابقة من بعض الوجوه ضريبة «تمثيل الامبراطور» ، وهى ضريبة كانت هيئة بالنسبة لغيرها من الضرائب — ومثلها ضريبة لبناء «معابد الامبراطور» ،

وكان تموين الفرق الحربية الامبراطورية ملقى على كاهل الفلاح المصرى إلى جانب احتياجات الادارة الحكومية المختلفة التى كانت تؤخذ نقداً أو عينا .

واختفت النقود من التداول تقريباً ، وكثر ادعاء الفقر والتظاهر بالعجز عن تأدية الضرائب لفداحتها ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على العجز عن سداد هذه الأنواع المختلفة من الضرائب ، لأن ذلك غنى عن البيان ، وان قلنا انه كان هناك كثير من ادعاء الفقر والتظاهر بالعجز عن اداء الضريبة ، فانما نستثنى من ذلك قلة من المواطنين كانت لاتزال تملك عقاراً على الطريقة الاقطاعية المعروفة . . . وهكذا كانت الضرائب فى ذلك العصر تؤدى عينيه من خراج الارض ، وسقطت بذلك الامبراطورية الرومانية إلى درك سحيق من الاسفاف بقبولها هذه الضرائب «عينية» — إذ عادت بذلك إلى أشد الطرق بداوة فى جباية الضرائب . والتزم عدد من الملاك جمع الضرائب — فان قصرت دون أدائها موارد الأهلين ، كان عليهم أن يسدوا العجز من مالههم الخاص ، فان لم يتيسر ، فمن انتاجهم الخاص . وفى ذلك من الجور والظلم ما فيه بالنسبة لمواطنى الامبراطورية ولجامعى الضرائب على السواء .

وفي ظل هذا النظام الجائر أثر كثير من الناس الفرار من أراضيهم، وفضلوا التسول وحية السلب والنهب، وفقدت الامبراطورية الطبقة الزراعية التي هي عماد الدولة في الحصول على الاموال المتدفقة في خزائنها، وحاول دِقليديان جهده أن يربط الزارع بأرضه، وأن يبق الطبقة الوسطى في مزاوله أعمالها، بسن القوانين الصارمة مخافة أن تفسد الحياة العامة، فيترتب على فسادها انهيار كيان النظام الاقتصادي الروماني، وتفقد الدولة بذلك أهم مقومات حياتها.

ومن السهل في نظام كهذا، أن نتصور أن الشدة والقسوة كانا شرطين أساسيين لحفظه، فلم يكن من اليسير أن يتخلى الفرد عن أعز ما يملك — وهو القوت الذي يزيد بعض الشيء عن الكفاف — إلا بسبب العسف ووسائل الاكراه، إذ أصبحت الارادة العليا - ارادة الامبراطور - قانوناً فوق القانون، وفقد الناس الحرية بكافة أنواعها — فقدوها في المال وفي العقيدة وفي الذات، واشتطت الحكومة فتحكمت في جهود الأفراد تحكماً جائراً لمصلحة العاهل الأكبر، وكثرت عيون الامبراطور في كل أنحاء البلاد ولا سيما على تجار الحبوب واللحوم والخبز ممن يتعاملون مع الجماهير، مخافة أن يؤدي عسف الامبراطور إلى هجرهم التجارة، فيهلك الناس جوعاً.

ذلك وصف موجز لما كان عليه الشعب في الحلقات الأخيرة من القرن الثالث والحلقات الأولى من القرن الرابع الميلادي، عسف وبطش وسخرة بالغة لحقت المحكومين، وأبهة ونعيم وترف في جانب الحاكمين — عمرت البلاد أم خربت، فما شأن الامبراطور بعمارها أو خرابها، ما دامت الاموال تتدفق في خزائن الدولة ؟؟

٣ — يقظة وجهاد

الجهل يخيم على العالم حقبة طويلة — المسيحية كقيلة بايقاظ العقول
 واشغال روح الوطنية من جديد — انتصارها انتصار لروح القومية المصرية
 — حركة النهضة المصرية القبطية منذ القرن الثالث الميلادي — ارتباط
 الشرق الأدنى بمصر من الوجهة السياسية منذ أقدم العصور — صدى الحركة
 القومية القبطية في أتمائه — تمجيد الاصل المصرى — أدب قبطى وفن
 قبطى وروح اعتزاز بالوطن والدين — مميزات القومية المصرية — الأناة
 وطول الانتظار والاحتمال من مميزات الشعور المصرى .

وكان من شأن هذا النظام أن قضى على كل أمل فى ظهور أدب أو
 فن ، لأن الأدب والفن لا يزدهران إلا فى جو من الحرية وفى بحبوحة من
 الرخاء المادى ، بل لقد ذهبت آثار هذا النظام البالى إلى ما هو أبعد من ذلك
 سوءاً ، فقضت على مقدرة العناصر التى كان يرجى منها الخير ، والتى أنتج
 أسلافها للأمباطور أدباً وفناً فيما سبق ذلك من الزمن ، كما قضت قضاءً
 مبرماً على كل تقدم كان مرجواً للحركة التجارة . ويكاد يكون ارتقاء دقلديانوس
 العرش الأمباطورى الحد الفاصل بين المدنية القديمة ، بما عرف عنها من تقدم
 فكرى ورخاء مادى ، قوامه العدالة ورعاية مصالح الأفراد ، وبين هذه الحال
 السيئة التى غاض فيها انتاج الفكر وزال الرخاء وخنقت الحريات وهوت
 مصالح الأهلى إلى قرار سحق من الاهمال والنسيان ، — كما نكان اعتلاؤه
 العرش الأمباطورى نذير هذا السوء الذى حل بالمدنية القديمة فأزال من
 معالمها كل شئ — إلا ما أفلت من حطامها ناجياً من ظلم ذلك الزمن وعشه
 بحرية الأفراد والجماعات .

ونزلت إيطاليا في عهد دقلديانوس إلى المرتبة الثانية من حيث الأهمية السياسية بعد أن كانت حتى ذلك الحين قصة الدولة ومستقر النشاط السياسي الروماني . وقد ساعدت على هبوطها عوامل مجتمعة : منها غزوات البرابرة الجرمان على حوض الدانوب الأدنى ، ونهوض الدولة الفارسية وتهديدها أطراف الإمبراطورية من شرقها ، مما أدى إلى ضرورة اتجاه الإمبراطور صوب الشرق دفاعاً عن كيان إمبراطوريته وظهرت في البلقان قوة الجند (الليريين) ونهض من بين فصائل الجنود (الليرية) عاهل أمبراطورى لا يمت إلى روما بصلة ولا حاجة به إلى التشبث بإيطاليا كمركز للإمبراطورية .

وتجلى الميل الجديد إلى الشرق على أشده في عهد « هديران » ، الذى عنى بأثينا عناية فائقة فأنفق فى تجميلها الأموال الطائلة .

وظهر على أثر موت دقلديان ، أن النظام الذى وضعه لحكم الإمبراطورية كان فاسداً شديداً الفساد ، إذ تنازع على العرش نفر من الطامعين فيه ، وخرج قسطنطين من هذا النضال فائزاً بحكم الإمبراطورية ، مؤثراً شرق الإمبراطورية على غربها . وأسس لهذا مدينة القسطنطينية ، متخذاً من مدينة « بيزنطة » ، الإغريقية نواة لعاصمته الجديدة . ومن هذه العاصمة حكم الإمبراطورية الرومانية حكماً قوياً موفقاً إلى حد كبير . وكان تأسيس القسطنطينية حادثاً خطيراً فى سياسة الدولة الرومانية ، بدأ به انقسامها إلى شرقية وغربية ، وتفوقت به المدينة الشرقية على مدينة الغرب ، وطغى سيل الآراء الشرقية على الحكم ، وظهرت طرائق الشرقيين جلية فى حياة الروم البيزنطيين ، —

وكان من جراء هذا كله ذلك التدهور البطيء الذى أصاب صميم الدولة وسرى فى جسمها سريان السم القتال .

ولم تغن أنظمة دقلديانوس عن هذا الفساد شيئاً ، ولم يعد مواطن الدولة يشترك بشعوره وقلبه فى العمل على رخائها وصالحها ، لأن الدولة كما قدمنا لم تكن تبادله المنفعة ، وانعدم وجود العنصر النشط الذى كان يأخذ على عاتقه عظام الأمور فى عصر الجمهورية .

ولم يقدر للأمبراطورية وشعوبها أن تتنفس الصعداء ، فتسجيا بعض الحياة ، إلا بانتصار المسيحية ، وعلو شأنها ، فزاد على يد قسطنطين عدد الكنائس واحتاجت المسيحية إلى رجال أكفاء يسهرون على مصالحها ، وخلقت المناقشات الدينية بين رجال الكنيسة طائفة من الرجال ، امتازت بالمقدرة على تصريف الأمور ، فكان منهم قادة فكر ، مكنتهم مواهبهم الشخصية من الظهور على مسرح السياسة — بعد مسرح الدين ، فشغلوا مناصب الدولة الكبرى فى زمن عزّ فيه الكفاء الذى يستطيع قياد الدولة ، بسبب ما أصابها من التدهور السياسى غداة قضى دقلديانوس على آخر شكل من أشكال الديموقراطية ، بقضائه على مجلس السناتو الايطالى .

وبهذا ارتفعت المسيحية من مجرد عقيدة دينية ، لم يكن يعتنقها إلا ضعاف القوم ، إلى نظام عتيد استطاع أن يناهض الاداة الحكومية . ولا غرو ، فقد كانت المسيحية فى ذلك العهد أشبه شىء بالرقابة المفروضة على نظام سياسى فاسد ، واجبها تقويمه واصلاحه ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ويمكن القول اجمالاً أن قوة المسيحية كعقيدة، أتيح لها عصر من النماء والازدهار طويلٌ لا بأس بطوله؛ ولكنها عادت فاصطدمت بآراء الأمبراطور «جوليان» (٣٦١/٣٦٣ م) الذي كان مشبعاً مثل سلفه «ماركوس أورليوس» بروح الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني. وعانت المسيحية من جديد شيئاً من العنت غير قليل. وكان جوليان — لحسن حظ المسيحية — آخر ممثل للوثنية اليونانية، وبموته رجعت إلى المسيحية سطوتها وعاد إلى رجاها نفوذهم في ميدان السياسة.

وما تجدر ملاحظته أن عودة المسيحية إلى الانتصار بموت جوليان، أكسب الحياة العامة في جميع أنحاء الأمبراطورية شيئاً من الاعتزاز والقوة. وكان ذلك على أظهر حالاته في مصر، «بلاد العقيدة» — فكانت المسيحية في كل مكان ولا سيما في مصر، أكثر بلاد الأمبراطورية شعوراً بالقسر والظلم والارهاق — سبباً في تنور الأذهان واتجاهها إلى الحقوق المهدورة طالبة ردها، ففي ظلمات ذلك العصر، كان النور الذي شع ضئيلاً من كوى الكنائس، وطاقات الأديرة، عاملاً قوياً في هداية الناس وإشعارهم بحقوقهم الضائعة.



في ظل هذا النظام الاقتصادي الجائر، وتحت حد هذا السيف الروماني المرهف المستلّط على الرقاب، نمت روح قومية مصرية، دلت على حيوية ملازمة للعنصر المصري، تجلت في التبرم بهذا النظام، وعملت تدريجاً على الخلاص منه، وئيدة جادة، حتى قدر لها النجاح — وساعدتها عوامل سوف تنبئها رويداً رويداً.

والحق أنه منذ أواخر القرن الثالث الميلادي، بدأت تدب في المصريين بوادر حركة قومية مناوئة لطرائق الحياة والنظم الهلينية والرومانية إطلاقاً (١)، اقترنت بحركة احياء للعقائد والتقاليد المصرية القديمة، وقامت في نفس الوقت حركات قومية مشابهة في بلاد الشرق عامة، ترمى إلى الغرض من شأن المدنية اليونانية في سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى — يرجح أن يكون الفرس الساسانيون هم الذين أذكوا نارها في كل مكان. وكانت مدن مصر العليا معقل هذه الحركة المعارضة، والحق أنه عند ما قبل الوطنيون المصريون الديانة المسيحية، خلقت فيهم العقيدة شعوراً بقوتهم وقيمتهم، ولا غرو فقد اقترنت الديانة الجديدة بحركة فكرية قوية حققت الوثنية الأغريقية كل التحقير، وقام رجال الدين يعظون الناس باللغة المصرية بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية، وتزعم هذه الحركة نفر من رجال الدين الأقباط، وأخذت الكتب الدينية تنقل من اليونانية، لغة الدولة الرسمية، إلى اللغة المصرية القبطية تباعاً. ولم تقف حركة المعارضة عند هذا الحد، بل اتخذ المصريون لانفسهم فناً قبطياً ناهضوا به الفن الاغريقى الرومانى، ولو أنه لم يخل من التأثير به على كل حال.

وكان انتصار المسيحية على الوثنية في حقيقة الامر انتصاراً لمصر القبطية على الحكم الرومانى، وثورة على النظم البيزنطية، إذ بدأ يشعر أقباط مصر بقوميتهم، وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه في شئون البلاد كورثة للفراعنة، وامتلات نفوسهم كراهية للأغريق الذين طالما احتقروهم وغضوا من شأنهم، وللرومان الذين طالما نسكلوا بهم وساموهم ألواناً من الخسف وسوء العذاب.

وبلغت روح التفاخر بعراقة الاصل المصرى بين أقباط مصر أعظم شأن لها فى القرن السادس الميلادى — حين أخذ المصريون يشيعون أنهم أقدم شعوب الارض، وأن بلادهم اخترعت الكتابة والهندسة فضلاً عن غيرهما من العلوم، وبعبارة أخرى أنها مهد المدنية. واعتقد الاقباط اعتقاداً جازماً، إن خطأ وإن صواباً، انه ما من شىء عظيم الشأن فى هذا العالم، إلا كان من عمل متحمسيهم، وبالغوا فى تفاخرهم هذا إلى درجة أخطأت الحقائق المقررة فى التاريخ، فانتحلوا المصر شخصية الامبراطور دقلديانوس والامبراطور تيودوسيوس والامبراطورة « تيودورا »، وحاولوا أن يطغوا على التاريخ بدعوى جرئية مؤداها أن المسيح لم يولد فى « بيت لحم »، وإنما ولد فى « هيراقليوبوليس » فى الطيبائيد فى صعيد مصر. وكانت مصر فى نظرهم « بلاد الله المختارة » وأقربها إلى قلب المسيح، وأخلصها لعقيدته. ولا شك فى أن تلك الحركة فى جملتها إنما هى حركة انتعاش قومى، بلغت منتهاها من الحده خارج مدينة الاسكندرية الاغريقية الصبغة والروح والحياة، واشتعلت جذوتها فى المدن المصرية الصميمة التى تنسكت جميعها للأجانب، وقطعت الصلة أو كادت تقطعها بالامبراطورية الرومانية، فلم تبقى لها بها من علاقة سوى علاقة التبعية السياسية، وغدونا منذ ذلك الحين نرى فى مصر شعباً مصرياً يحس لنفسه بوجود شخصى مستقل.

وكثيراً ما نلاحظ فى أدب القرنين الرابع والخامس الميلاديين كلمة الاهلى أو القومى صفة لكل شىء مصرى من علوم أو آداب أو دين، حتى لقد يحق أن يقال أن « المسيحية المصرية » كلمة رادفت « القومية المصرية » وأصبحت فى ذلك الوقت علامة عليها.

وفي القرن السادس الميلادي نرى ظل كل شيء يوناني يأخذ في التقلص . ونلاحظ فيما كتب الأستاذ « ديل » من أساتذة السربون في مؤلفه مصر المسيحية والبيزنطية (١)، في الفصل الذي عقده للأدب القبطي، رغبة المصريين الأقباط في تجنب استعمال اليونانية تجنباً تاماً، كان من شأنه أن قطع الصلة بين مصر والثقافة اليونانية قطعاً نهائياً .

وبدأ الأقباط يغفلون الآداب الاغريقية اغفالا، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القبطية، فدونوا بها كتاباتهم الدينية عن حياة القديسين وتواريخ الشهداء، كما دونوا بها أشعارهم وسير المترهبين في الأديرة، مملوءة بالمعجزات والمبالغات التي راقى خيالهم، وعبرت عن شعور قومي ملتهب، بمقت الأجني ثقافته وحكمه، ويمجد تاريخ البلاد وماضيها ومدنيتها، ويتخذ من كل ذلك أساساً للروح الجديدة. ومبعث ذلك فيما يعتقد جوستاف لوبون (٢) مقدرة هذا الشعب المصري على الهضم، واحتفاظه بالدم الفرعوني الصميم إذ يقول :

« غزت مصر شعوب^٢ مختلفة، ولكن البلاد استطاعت رغم ذلك أن « تهضم هؤلاء الفاتحين جميعاً، محتفظة بفنونها ولغتها وعقائدها . فلم يتح « لأولئك الفاتحين أن يؤثروا فيها ... إلا العرب الذين فرضوا « عليها دينهم ولغتهم وفنوناً أجنبية، ومع ذلك ظلت مصر رغم هذا « الاخضاع، فرعونية الدم . »

(١) ديل — كتاب مصر المسيحية والبيزنطية ص ٧١٥ Ch. Diehl. L'Egypte Chretienne et Byzantine.

(٢) لوبون - كتاب المدنيات الأولى ص ٨١٤/٨١٥ G. Le-Bon, Les Premières Civilisations.

وهكذا كادت القرون الأربعة التي بدأت بالقرن الثالث و انتهت بنهاية القرن السادس الميلادى ، قرون نضال شديد فى مصر ، تجبو ناره حيناً وتنطفئ حيناً آخر ، قصّص المصريين فى خلالها إلى اثبات وجودهم القومى ، ونجحوا فى ذلك إلى حد بعيد .

ويجدر أن نعرف أن هذه الحركة المصرية التي أشعل القبط نيرانها ، لم تكن ثورة على النظام الاقتصادى الرومانى فى مصر فحسب ، بل كانت حركة قومية بالمعنى الصحيح ، صحبها ما يصحب الحركات القومية من ظهور أدب خاص وفنون وطرائق خاصة — فى ميدان الأدب كتب القبط رسائل عن تاريخ البطارقة وشهداء المسيحية ، ومجدوا السيد المسيح ، وظهرت لهم فى عالم الوجود آداب دينية فى جملتها ، اصطبغت بالصبغة القومية المصرية . وفى ميدان الفن بدأ القبط منذ القرن الثالث الميلادى ينشئون لهم فناً مصرياً قبطياً ، فيه كثير من التقاليد الفرعونية الموروثة ، وقليل من الفنون الهلينية . ونما هذا الفن واضطرد نموه حتى أدرك فى القرن الرابع والخامس ذروته ، متمشياً مع نضوح الحركة القومية ، وبالغاً معها درجة الاكتمال فى وقت واحد (١) . وهو صورة من صور النضوح القومى على كل حال ، أو هو احياء لتقاليد قديمة ذكرت القوم بما كان لهم فيما مضى من ذاتية واستقلال . وهذه المرحلة التي اصطلمح علماء الفنون على تسميتها بالفن القبطى ، أن هى إلا صورة من صور الاستقلال الفنى الذي يلزم أحياناً فكرة الاستقلال السياسى .

على أنه يلاحظ أن قوة الانتاج الأدبى الدينى ، وقوة التقاليد الفنية

(١) بطلر — الخزف الإسلامى ص ١٨ — بطلر: فتح العرب لمصر (التعريب) ص ٨٢/٨٤/٨٥/١٠٣

القبطية، لقيت نجاحاً كبيراً خارج الاسكندرية معقل « الهلينزم » المكين . ولا غرو، فقد وجدت المسيحية لنفسها انتشاراً ورواجاً عظيمين خارج هذا النطاق . وأنشأ « سانت أنتوني » نظام الأديرة في المسيحية المصرية، ونظم « باخوم » حياة الرهبان تنظيمًا لا بأس به . ومما يسترعى النظر أن قادة الفكر المسيحي بذلوا كل جهودهم خارج الاسكندرية، وعاشوا على جانبي النيل في الأديرة التي أنشأوها في كثير من الجهات على ضفتيه عيشة انزاع، (١) ساعدت على الابتعاد عن الرومان ابتعاداً روحياً .

وهكذا أتخذت المسيحية وسيلةً لاذكاء الروح القومية وأداة للانفصال الروحي عن الدولة الحاكمة، فكان هذا البعد المتعمد عن الاسكندرية، مستقر الأداة الحكومية، ومستودع الثقافة اليونانية الهلينية في صورتها المتأخرة، نذير ذلك الانفصال الذي تهيأت البلاد له قبيل الغزو العربي، بل ودعامته التي قام عليها — فغدونا نرى إلى جانب المسيحية أدباً خاصاً يسندها، وفناً متميزاً يخدم أغراضها، بُعداً كبيراً عن الفن « الهليني اليوناني » وغداً له طابعه الخاص . استخدم هذا الفن في بناء عمارات الأديرة، وابداع النقوش التي تزينها، وادى فن التصوير بوجه خاص، مهمته في خدمة المسيحية، ولا سيما في تصوير المخطوطات الدينية . ومهما يكن من شيء، فقد ظهرت مميزات هذا الفن الجديد في ميادين العمارة والنحت، وفي الفنون الفرعية إطلاقاً — وهو فن له ذاتيته، يتصف بشيء

غير قليل من الجفاف والبعد عن تمثيل الطبيعة ، وبمسحة أغريقية متداعية ، وهو في جملة إذا اعتبرناه فناً قومياً ، فنـ مصري قديم متأثر بروح «الهلينزم» التي غلبت على البلاد دهوراً طويلة . وإذا عد — كما يرى بعض مؤرخي الفنون — مرحلة من مراحل الفن اليوناني ، فهو مرحلة انحطاط وتأخر ، لأنه فقد الشيء الكثير من مميزات الفن الكلاسيكي اليوناني - الروماني .

على أن ما فقدته الفن الهليني من مميزات في شخص هذا الفن الجديد ، كسبته القومية المصرية بلا مرأى ، فقد بثت روحها القوية فيه ، واتخذت منه وسيلة للإعلان عن وجودها المستقل ، وأداة انتفاع لا بأس بها ، خدمت النهضة القومية في ناحية من نواحيها .

ونحن إذا عملنا الفكر قليلاً ، ألفينا أن المسيحية نفسها قد اتخذت في مصر طابعاً محلياً خاصاً ، ناوأت به المذهب الديني الحكومي مناوأة شديدة ، وليس ذلك إلا النزوع بعينة إلى الاستقلال ، والرغبة الملحة في الانفصال عن جسم الدولة — فإذا كان القبط قد رغبوا مبكرين في سلوك سياسة المناوأة ، فما ذلك إلا لميل كامن في النفوس إلى الانفصال الروحي والتحرر الفكري . واتخذت هذه المناوأة شكلاً عملياً صامتاً ، اتضح على مر الزمن رويداً رويداً ، فأفصح عن حركة قوية ، لها كل صفات الحركات القومية ، من إيمان راسخ بتفوق العنصر وسمو ادراكه ، واقتخاره بماضيه ، واعتزازه بقبته وآدابه ، وتمجيد طرائقه الخاصة .

وتحلى المصريون في جهادهم هذا بالآناة والصبر ، وهما من أهم مميزات القومية المصرية ومن أخص علاماتها ، وقد يبدو لمن يجهل حقيقة النفس

المصرية ، أنها تصبر على الهوان وتسيغه ، وتقبل الخضوع لسلطانها الجائر ،
والحقيقة أن المصريين مصابرون يؤمنون بحقوقهم ويستمسكون بها ، وقد
تستتر هذه الحقوق آجالاً طويلة ، وقد يطغى عليها الزمن بأحداثه الجسام ،
فتختفي كما تختفي جذوة النار في الرماد ، ولكنها لا تموت أبداً . وفي الخلق
المصرى ميل إلى مصانعة القوة ومهادنتها زمناً — لعله السرفيما يبدو تساهلاً
أو خضوعاً أو استسلاماً للغاصب ، وما هو بالتساهل أو الخضوع أو
الاستسلام !

° ° °

من أجل هذا حق القول بأنه قد يطول بنا معشر المصريين انتظار
النصر — ولكن مهما طال بنا أمد الانتظار ، فلا شك أننا فائزون
آخر الأمر .

٤ — دين الخلاص

حكم الروم في مصر جائر غير مبرر — غاية الانتفاع وأبد أغراضه
النفع — الجشع المادى وأثره في نفوس المصريين — صوفية النفس
المصرية وانماها الجزء في الدار الآخرة — الخلاف الدنى بين المصريين
وبين حكامهم من الرومان — شدة ذلك الخلاف وهوله — سوء النظام
الإدارى في البلاد وضعف القوة المعنوية — القاس القبط للخلاص —
تظاهروا إلى الإسلام يلتصقون فيه ذلك الخلاص — شبه الإسلام بالمسيحية
الحقة — دين يدعو إلى الخير ويحث على الإحسان .



منذ انتهى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح ، وهو العصر الذهبى لحكم
الروم في مصر ، لا ينى التاريخ يذكر من مظالم الحكم الرومانى ومفاسده
الشيء الكثير ، وما أن حل القرن الخامس الميلادى ، حتى كان الفساد قد
تغلغل في جسم الدولة ، وعمل عمله السىء فيه ، فنذ نهاية القرن الرابع
استحكم الخلاف بين المصريين وحكامهم من الروم ، وبلغت الهوة بين
الفريقين مبلغا محيقا تجلى في الخلاف الذى نشأ بين الكنيسة المحلية وبين
الحكومة ، وهو خلاف سياسى في الحقيقة جاء نتيجة لنضوج العقلية المصرية
ورغبتها في التحرر من سلطان الروم — وكثيرا ما تتخذ مسائل الدين ستارا
يخفى وراءه أغراضا سياسية .

كانت الدولة الرومانية في مصر اغريقية الروح ، بلاطها يونانى
الصبغة ، ولغتها يونانية كذلك ، مشبعة بتقاليد اليونان وعاداتهم —
كانت مسيحية الدين ، على خلاف دائم مع مسيحي مصر ، رومانية في
أساليب الحكم ، بمعنى أنها كانت دولة نفعية يقوم سلطانها على العنف والقسوة ،

ولا سبيل الى بقائها بغير ذلك . ويصعب في عرف السياسة أن تقوم دولة واسعة الأطراف بفرض سيطرتها على أقوام مختلفين ، دون أن تبرر هذه الدولة سيطرتها وفتوحها بآراء فلسفية قد تجوز على الشعوب المقهورة وقد لا تجوز . وقد يما برّر « الاسكندر المقدوني » فتوحاته الواسعة بفكرة مزج « الشرق ، بالغرب وازالة التجا في بينهما ونشر الثقافة الهلينية بين ربوعه ، قصد تحضيره واستدراجه الى حظيرة المدنية . وفي الأزمنة الحديثة فعل « بونابرت » ما فعله الاسكندر ، فاتخذ تحضير « الليقانت » (شرق البحر الأبيض المتوسط) ذريعة لاحتلاله وحكمه ، واستصحب معه العلماء ليحقق بأبحاثهم الجانب المعنوى من الغزو . وفي العقد الثانى من القرن العشرين أشعلت نيران حرب ضروس باسم المدنية ، وسجلت بريطانيا ذلك على « المدالية التذكارية » التى منحتها لمن اشتركوا فى الحرب الكبرى ، وقد كُتبت عليها العبارة الموجزة الآتية « الحرب من أجل المدنية » . ومهما يكن من أمر هذه الدعاوى ، فهى ضرورية فى كل العصور لتبرير أعمال العدوان وإكسابها صبغة مشروعة . ولقد أفلحت تلك الأساليب وآتت أكلها إلى حين . ومن أجل ذلك كان الفتح الذى لا يستند إلى شىء من مثل هذه الدعاوى فتحاً مرموقاً بعين الكراهية ، منعوتاً بالاغتصاب ، لا ترتاح اليه الأمم المقهورة عادة ولا تحتمله إلا ريثما تنهأ لرده . ولقد كان ذلك حال المصريين مع الأمم التى أغارت على بلادهم مدفوعة بعامل النهم المادى أو الرغبة فى السيطرة السياسية .

قبل المصريون دعوى « الهلينزم » التى حمل الاسكندر لواءها أكثر مما قبلها غيرهم من الشعوب التى غلبها الاسكندر على أمرها — وذلك لقدم عهدهم بالحضارة وتهيؤ عقولهم لقبول المدنية ، وهم قبلوها مع

ذلك بخذر وتوجس شديدين ، واستطاعوا بمزاياهم العقلية الخاصة ، أن يهادنوا هذه الحضارة الدخيلة ويخلوا لها السبيل ، فما أن استقرت في أطراف البلاد منعزلة محصورة في الاسكندرية ، وهـ نقراتس ، في غرب الدلتا ، حتى تمكن المصريون من التأثير فيها بخصائصهم الغالبة ، ورفضوا ما لم يتفق منها مع قوميتهم المحافظة .

ونجحت « الهلينية » في مصر الى مدى بعيد ، ومكن لها الزمن الطويل من الاستقرار في الاسكندرية ، لا تعدوها الا مرتدة الى وكرها ، منكمشة في اسراع .

وآلت مصر الى الرومان ، كما آلت أثينا ذاتها . ولم تتفوق « الرومانية » على « الهلينية » بمبادئها وخصائصها المعنوية — حيث لم يكن لها مبادئ ، معروفة ، وإنما تفوقت بقوتها المادية ، وهي لهذا السبب ذاته ، لم تقم في بلد من البلاد التي أخضعها الا معتمدة على الحديد والنار . والمدنية الرومانية في جملتها آخذة أكثر منها معطية ، بعكس المدنية اليونانية ذات الصفة الانسانية التي أعطت العالم في عنفوانها ولم تأخذ جزاء ما أعطت شيئا — ولئن كانت المدنية الاغريقية (اليونانية) لم يقدر لها الانتشار أول الامر الا مصاحبة للغزو الحربي والتوسع السياسي ، فأنها على كل حال لم تفقد يوما ما مزاياها الانسانية ، على الرغم مما صحبها من الاطماع المادية والسياسية .

لهذا كان الحكم الروماني في نظر المصريين غير مشروع وغير مُبَرَّر ، لأنه حكم خلا من النفع ، ولقد يصح أن تُرجع الى هذا المعنى كل شرور الحكم الروماني وآثامه ، فقد حكم الرومان مصر حكما كل غايته الانتفاع وأبعد أغراضه النفع .

لاقى المصريون صنوفا من الارهاق والحرمان ، وصبروا على الأذى دهوراً طويلة ، وضربوا المثل الأعلى فى الجلد وطول الأناة ، ولعل من أظهر ما يميز النفس المصرية استسلام تام لقضاء الله فيها ، وتصوف غلب عليها فجعلها لا تنظر الى هذه الدنيا نظرة جد ، ولا تبغى منها غير الكفاف الذى يسد الرمق أو يغنى من الفاقة ، ولقد كد المصريون كدا فى سبيل العيش طيلة حكم الرومان الجائر ، غير ناظرين الى نعيم هذا العالم — فلم يكن ثمة اليه من سبيل — إذ قد باعد الرومان بينهم وبين أمنية كهذه ، باجتذاب الانتاج على تنوع أشكاله الى «روما» — ولو كان فى نفوس المصريين نزوع الى المادة ، وانصراف الى هذه الحياة الدنيا ابتغاء نعيمها ورخائها ، لكانت الحال غير ما رأينا .

عرف المصريون منذ القدم الإيمان بالعالم الثانى ، والاعتقاد فى فناء هذا العالم ، يؤيد ذلك قول هيرودوت « ان المصرى يعتبر داره فى الدنيا مقاما مؤقتا والقبر مستقرة الأبدى » — ومن ثم طمح المصرى الى حياة أبدية فى العالم الآخر ، فيها نعيم مقيم وأمن وراحة وبعد عن شرور المادة وتطهر من أدرانها .

غلبت هذه النزعة الصوفية على نفوس المصريين ، ولازمتهم ملازمة الغريزة ، وأثرت فى حياتهم تأثيرها المعروف ، فباعدت بينهم وبين التبرم بسوء حالهم — إبان الحكم الرومانى ، وراضت نفوسهم على التقشف ، وصرفت عن الثورة على ذلك النظام الاقتصادى الجائر ، بما قد يبدو خنوعا واستسلاما وما هو بالخنوع ولا الاستسلام ؛ وأخذ المصريون يرقبون

وسيلة الخلاص من هذه الحال السيئة ، اما بمفارقة الدنيا ، أو بمحدث من الأحداث الجسام التي ينزلها الله بالباغين من عباده ، فتبدل به الحال غير الحال . وساعد ما هو مركب في نفوسهم من الأناة والصبر ، على احتمال هذا المكروه احقا بطويلة ، وظهر التبرم آخر الأمر — لا على شكل ثورة اقتصادية مادية ، كما كان ينتظر ، وانما على شكل خلاف ديني مذهبي ، تجلت فيه رغبة القبط في الانفصال الروحي عن الدولة الرومانية ، وسنفصل هذا الخلاف الديني المذهبي في موقعه ، لنرى كيف باعد بين أبناء العقيدة الواحدة ، وقرَّب بين اتباع عيسى واتباع محمد .

عانى المصريون في حكم الرومان أهوالا جساما ، أساسها كلها جشع هؤلاء ونهمهم ، وابتزازهم الأموال بشتى أنواع الضرائب ، وقد حاول الروم جاهدين أن يتخذوا من نظام الضرائب البطليموسى أساسا لنظامهم المالى ، فلم يوفقوا . فقد فرضوا على المصريين ما كان البطالسة قد فرضوه من ضرائب ، ولسكنهم زادوا عليه الكثير مما ابتكروه ، خالفوا البطالسة في صميم سياستهم المالية ، فقد أخرجوا من البلاد كل ما جمعوا من أموال ، فأرسلوه إلى روما ثم إلى القسطنطينية . بينما كان البطالسة يجمعون الأموال لانفاقها على مرافق مصر المختلفة — ولم يكن هؤلاء الروم ينظرون إلى مصر إلا نظرة استغلال ، وكانت الضرائب الرومانية ضرائب مرثية ، يشعر الخاص والعام بعبئها وفداحتها وتنوعها ، عينية تثير الحفيظة في النفوس فتنتفّر الناس من حكم هؤلاء الرومان وتسخطهم عليهم .

يضاف إلى ذلك ، الخلاف الذى استحكم بين القبط والحكومة حول

طبيعة السيد المسيح عدة أجيال ، فقد حاولت الدولة أن تفرض المذهب الذى ابتدعته رجال الدين الرسميين لازالة ما أحدثه « مجمع خلقدونية » من شقاق بين المسيحيين . وصادف أن عيّن « قيرس » أسقف فاليس من بلاد القوقاز كبيراً لأساقفة الاسكندرية ، وكان لهذا التعيين أسوأ النتائج ، فقد عقد قيرس النية على أن يغلب المذهب الرسمى على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلاً بكافة الوسائل حسننها وقييحها — على أنه أخفق كل الأخفاق فيما اعتزم ، وقاده الاخفاق إلى البغى والتسكيل بمخالفيه الذين ذاقوا على يديه أهوالاً جساماً ، وغدا اسمه مفزعاً ، كريهاً عشر سنين — وما كاد قيرس يبلغ الاسكندرية حتى أخذ بنيامين راعى الكنيسة القبطية يحض أتباعه على الثبات على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من ثمن ، وكتب إلى أساقفته جميعاً يدعوهم إلى الالتجاء إلى الجبال والصحارى يتوارون فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه ، وتنبأ بما سيحل بالبلاد من بلاء ، وفر هو نفسه إلى أديرة وادى النطرون ، ولكنها كانت قد خربت قبل ذلك بزمان ، فلم تعد صالحة للإقامة فيها ، فتركها إلى الصعيد ، ولاذ بدير فى مدينة « قوص » . وشرّد بحجى قيرس قسوس القبط كل مشرّد — وزاد من بطشه أن عينه الأمبراطور حاكماً زمنياً على مصر ، فأطار ذلك صواب الأقباط ، لما وجدوه من اجتماع سلطان الدين وسلطان الدنيا فى يد هذا الطاغية (١) . والواقع أنه لم تكن هناك فوارق جوهرية بين المذهب المنوئيلى (مذهب الحكومة) ، والمذهب المنوفيسى مذهب القبط ، وأدى رفض التفاهم إلى مصائب جسيمة . وكانت حجة القبط فى ذلك الرفض أن

المذهب الجديد بدعة لا يصح أن تدخل على عقيدتهم في السيد المسيح ،
فقابلوه (أى المذهب الجديد) بأشد أنواع الكراهية — ويزيد بطلر فيقول :
« وقد كان استقلالهم في أمور الدين أكبر ما تتوق اليه نفوسهم ، فانهم لم
يعرفوا الاستقلال القومى قط ، ولعلمهم لم يحلموا يوماً ما بمثل ذلك الأمل ،
وأما الاستقلال في أمر الدين ، فقد ناضلوا من أجله ، ولم ينشوا عن ذلك في
وقت من الأوقات منذ كان اجتماع مجلس « خلقدونية » ، وكانوا حريصين
على بلوغ ذلك الغرض ، لا تغفل عنه قلوبهم ، ولا يحجمون عن بذل كل
شئ في سبيله مهما عظم » (١)

على أننا نخالف الدكتور بطلر — إذ ندرك في الرغبة في الاستقلال الدينى
نزوعاً إلى الاستقلال السياسى ، سيما وقد ظهرت إلى جانب هذه الرغبة
مظاهر أخرى قومية — هى نشوء أدب خاص ، وفن مستقل ، واعتزاز
بالأصل ، وكراهة عنصرية ، وبغض لكل ما ليس مصرياً — أوقد نارها
واذكاها ظلم الغاصب وطغيانه .

وهكذا احتفظت مصر بقوميتها، وعزرتها بمذهب دينى مستقل دافعت
عنه دفاع الأبطال وحافظت عليه محافظة ليست إلا صورة من صور
الحرص على بقاء شخصيتها ، ودوام استقلالها . وباعدت الأحداث بين
القبط وبين حكامهم من الروم ، وزاد الهوة بين الفريقين عامل الجنس ،
فقد كان الروم آريين والقبط من الساميين والحاميين — وأدى اختلال
النظام الإدارى وانحلاله إلى ضعف سلطة حاكم الاسكندرية وهو كبير

الحكام الرومان في مصر. وكان النظام الادارى في مصر قبيل فتح العرب لها نظاماً معتلاً — إذ انقسمت البلاد في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى أقساماً هى : —

(١) الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم الرومانى الأكبر المعروف باسم « الدوق الأعظم » ،

(٢) منطقة شرق الدلتا ويحكمها (دوق) .

(٣) منطقة اركاديا وهى مصر الوسطى والفيوم ، ويحكمها (دوق) .

(٤) منطقة غرب الدلتا ، « ليبيا » ويحكمها (دوق) .

(٥) منطقة الطيبايد : وهى مصر الجنوبية حتى حدود السودان ، ويحكمها (دوق) .

وكانت الرئاسة العليا لهؤلاء الحكام جميعاً ممثلة فى حاكم الاسكندرية ، غير أن ضعف سلطته أدى إلى استقلال كل من الحكام الآخرين بأقليمه وتكوين جيش خاص — ولكن الحالة المعنوية بين الجنود الرومان كانت سيئة للغاية ، زاد من سوءها شعورهم بأنه لا تربطهم بهذه الأرض رابطة الوطن . وانعدمت من جراء هذا التخاذل ، الوحدة التى لا غنى عنها لدفع خطر داهم .

ومهد ذلك كله إلى التماس القبط الخلاص فى حدث جسيم يحل فيقيم شروء تلك الحياة ومفاسدها — وكثر ارتقايبهم لجند الاسلام ؛ ولعله قد خطر بقلوبهم أن الخضوع للاسلام يخفف من الويلات والآلام التى جعلت حياتهم نكدآ وعبأ كبيرين ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف

وطأة من نير هرقل وقيرس ، نعم — لعلمهم رأوا في هبة المسلمين هذه نازلة أنزلها الله بالروم .

من هذا نفهم كيف سهل على العرب فتح هذه البلاد على قلة عددهم، فقد كانوا يقاتلون جيش احتلال روماني مفكك العرى ، ولم يجدوا بالبلاد شعباً متماسكاً، وإنما صادفوا في مصر قوى منهكة أعيائها الجهاد الطويل وبرح بها العسف، وحرمها مما انتجت أيديها من ثمر الأرض ، — صادفوا بها قوماً يرتقبون الخلاص ، يرتقبونه أين كان — في فجاج الأرض أو أجواز الفضاء .

حقاً — لم يكن يدرى قيرس ، ولم تكن يعلم الروم أن هذا العسف الذي اجتروحه مع المصريين، كان قد مهد السبيل تمهيداً لمطلع جنود الاسلام . فقد تطلع القبط إلى الاسلام تطلعهم إلى وسيلة الخلاص — والظاهر أن القبط لم يروا فيما بينهم وبين المسلمين الفاتحين خلافاً جوهرى فى الدين ، فقد كانت الخلافات المذهبية المسيحية قد بلغت بين المسيحيين أنفسهم غاية اضطرابها، وكثرت فيها المناقشات والتآويل، واتسعت الهوة بين أصحاب الدين الواحد حتى غدت الهوة بينهم شقيقة لا سبيل إلى النجاة منها — ذلك فى حين كان الاسلام ما يزال ديناً كلياً ، غير مشروح، لا يختلف معتقوه فيما بينهم كما يختلف المسيحيون — ورأى القبط فى الاسلام شهاً قوياً بعقيدتهم فى الله — فهو دين الوحدانية ، والوحدانية فكرة تروق عند الفرق المسيحية التى تميل إلى مذهب الطبيعة الواحدة وترفض فكرة الثالوث (وهؤلاء هم المنوفستيون) - ويرى الاسلام فى السيد المسيح مخلوقاً ممتازاً يتصف كسائر الأنبياء بصفات خاصة ، ولكنه ليس إلهاً ، وهو ما يأخذ به فريق النساطرة الذين يدنون

بمذهب « النাসوتية » — يضاف إلى ذلك أن فكرة الصليب التي لا تروق للمسلمين ، ليست مستساغة عند بعض الفرق المسيحية .

أدى هذا التقارب في العقيدة - إلى امتزاج روحى بين هذا الشعب المسكوم من أثر الاضطهاد الدينى المذهبى وبين الغزاة العرب الذين نهضوا ينشرون الاسلام فى ربوع العالم المسيحى .

والحق أنه فيما عدا مسألة 'بنوة المسيح' ، لا تختلف المسيحية عن الاسلام فى الأصول والأسس ، فجوهر الديانتين واحد ، وكلاهما جاء نتيجة لعوامل روحية معينة كبيرة الأثر فى المجتمع الانسانى ، فقد جاءت المسيحية (١) احتياجاً قوياً أشبه بالثورة على « المادية » التى كان قد طغى سلطانها على مرافق الحياة المختلفة وأصبحت شغل اليهود الشاغل فى كل مكان ، تلك المادية التى حاولت المسيحية الغض من شأنها جاهدة ، وقد ر لها النجاح فى القضاء عليها إلى حد بعيد . وما يستلفت النظر أن الرومان اتخذوا « المادة » أساساً فى بناء صرح امبراطوريتهم الواسعة ، وبسببها عسفوا وبطشوا حتى صبح أن ينعت حكمهم بأنه حكم مادى جائر لم يساعد المسيحية على أداء رسالتها ؛ وبلغ جشعهم المادى درجة لا تطاق على ما هو معروف ، وباعد ذلك بينهم وبين المحكومين ، وصبر المصريون على الأذى وصمدوا له دهوراً وآماداً ، والحق أن المسيحيين المصريين وجدوا فى الاسلام متقدماً لهم من شرور الروم ، فقد ندد الدين الجديد تنديداً شديداً بظلم الروم وطغيانهم ، وذكر القبط ، وما كانوا غافلين ، بتفانى اليهود فى حب المادة — ذلك التفانى الذى جاءت المسيحية لتتفقر منه ، وتقضى عليه ، ولا شك أن عسف

(١) سيد أمير على « روح الاسلام » ، ص ١٧٩ وما بعدها .

قرون ستة أو تزيد، لم تَكُفَّ في خلالها الادارة الرومانية عن جمع المال بوسائل لا تبررها شرائع الانصاف، ولا تسيغها النفوس الكريمة، قد فعل فعله في نفوس القوم، وذكّرهم بجهود السيد المسيح في القضاء على المادية اليهودية. ولقد وجد القبط في الاسلام دعوة ألقوها في المسيحية من قبل، ترمى الى الغض من شأن المادة دون أن يحرم الانسان نصيبه الضروري منها، كما وجدوا فيه تمجيداً للزهد والرضى والقناعة وغير ذلك من مظاهر التصوف التي اعتنقها زعمائهم وأنفقوا الحياة في الأديرة يمارسونها مخلصين معتقدين أن ذلك يقرب نفوسهم من الخالق عز وجل، ويروضها الرياضة الروحية التي يحض عليها الدين، ويُجْزَى فاعلوها جزاء ما كانوا يعملون.

وقبل أن تأتى المسيحية بتعاليمها في الزهد والرضا والقناعة بما قسم الله لمخلوقاته، وجدت فلسفة الاسكندرانيين (الافلاطونية الحديثة) في هذه البلاد مدعاً خصباً لأرائها التصوفية، حاضنة على الزهد والتقشف، متسامية بمبادئها الروحية عن شرور المادة وآثامها. وليس ببعيد أن يكون أنتشار هذا المذهب في مصر قبل العصر المسيحي، وفي أبانه، أثراً من آثار الغنى المادى الذي استهدف له المصريون طويلاً في ظل الحكم الرومانى، واستمر على الرغم من تشدد المسيحية في التنفير منه — ولا شك أن في رواج هذا المذهب التصوفى في مصر كل الدليل على إيثار المصريين حياة الروح على حياة الأجسام. وتروج مثل هذه النظريات الفلسفية عادة في عصور الظلم، وتجذب اتباعاً ومعتقدين في أوقات المحن أكثر من غيرها. وقد حوربت هذه الفلسفة التصوفية في مصر، كما حوربت غيرها من الآراء الفلسفية في أماكن أخرى، على اعتبار كونها آراء تنبه الأذهان الى الظلم من طريق الدعوة الى اجتماعه والصبر

على مكارهه — كما حوربت لأنها آراء وثنية لا يصح أن تبقى قائمة مع وجود المسيحية بتعاليمها الخاصة في الزهد والقناعة والرضى بالمقسوم .

والذى يهمننا من هذا كله هو أن نعلم أن المصريين لا بد أن يكونوا قد أدركوا شيئاً من آراء الاسكندرانيين ، كما يسمى الشهرستانى اتباع الافلاطونية الحديثة في زهد المادة ، زادته قوة تعاليم المسيحية من غير أن تقوى هذه أو تلك على انتزاع جرثومته من نفوس عمال الدولة النهمة — فوقع الظلم من نفوس المصريين المكلومة الحانقة موقعه المعروف وزاد التذمر والضجر بهذه الحال دهورا ، وعز الخلاص من هذا الضنك المستحکم الحلقات حتى جاء الاسلام يحمل على دولة الروم حملته القاضية ، ويقوض من أركان ملكهم العتيد ، ويقضى القضاء المبرم على كل ما كان لهم من جبروت وطغيان . وهكذا وجد القبط في الاسلام قربا من دينهم وشبها — فقد جاء القرآن مصدقا لما في التوراة والانجيل ، وطابقت تعاليمه ما في المسيحية من حض على المحبة والتواضع والراقة والغفران والتقوية عند الأوجاع الثقال (١) — ووجد القبط في الاسلام ما ألفوه في كتابهم المقدس من الاعتدل في الأمور ، والحض على التصديق ، واقامة العدل والمساواة بين بني الانسان ، ولمسوا في هذا الاتجاه الاجتماعى الأخير نفس المبادئ التى روج لها السيد المسيح ، ومكن لها من الذيوع والانتشار وهو يدعو دعوته الأولى على شواطئ بحيرة طبرية (٢) .



٥ — اندماج وانصهار

صلات دم قديمة العهد بين المصريين والعرب — الهجرات التاريخية السابقة للإسلام — الهجرة الكبرى — استجلاب العشائر والبطون واسكانهم مصر بعد الفتح — شعب جديد مشترك الميول والمصالح — بقية من الفوارق الاجتماعية لا تلبث أن تزول — خدمات القبط للإدارة العربية — استمتاعهم بمزايا التسامح العربي — أعجابهم بسماحة الإسلام وعدله وتمييزه بين قادرهم وعاجزهم — تمازج العنصرين سيما بعد نزول العرب إلى معترك الحياة العامة — دخول القبط في الإسلام وتنافس الجزية — اندماج القبط في العرب وتكون القومية الجديدة — الإسلام يحقق مبادئ العدل الاجتماعي للقبط .

بين العرب والمصريين صلوات دم قديمة العهد ، فالعرب كالمصريين من الجنس السامي ، ويعى التاريخ هجرات لم ينقطع سيلها من شبه الجزيرة العربية إلى الأقطار المجاورة لها ذات الخصب والزرع ، كان العرب يضطرون إليها إذا أقحطت بلادهم بسبب احتباس المطر ، مدفوعين بالضرورة الاقتصادية — عرف العرب البلاد المحيطة بهم معرفة قديمة ، فقد جالوا في أنحاء تجارتها أو وسطاء في نقل التجارة ، وكانت مصر من دون الأقطار المجاورة لشبه الجزيرة العربية مسرحاً لهجرات كثيرة يرجع بعضها إلى ما قبل التاريخ . وقد ساعد على ذلك أنه لا تقوم بين مصر وبلاد العرب سدود جغرافية

منبعة تحول دون تدفق الأعراب الى هذه الديار بطريق سيناء وسواحل البحر الأحمر . وتمكن العرب الحجازيون بوجه خاص من اجتياز جبال البحر الأحمر وانتجاع صحراء العرب . وكانت سيناء مأهولة بالبندو على عهد قدماء المصريين كما يستدل بالنقوش التي عثر المنقبون عليها تمثل انتصار الفراعنة عليهم . واحتفظ العرب النازحون إلى مصر من قديم الزمان بنظامهم الاجتماعى القبلى الذى ما تزال بعض مظاهره باقية حتى الآن .

ولا يعرف التاريخ لهذه الهجرات المتوالية عدداً . ولا شك أن أعظم الهجرات العربية شأنها هي التي وقعت عند ظهور الاسلام ونشر دعوته ، فقد خرجت جموع غفيرة من بلاد العرب للجهاد فى سبيل الله ، صادفت فى البلاد المفتوحة عشائر من بنى عموميتها — وجاءت هذه الهجرة الكبرى متوجة للهجرات التي سبقتها والتي كانت أشبه شيء بالموجات البشرية تنبعث من وسط شبه الجزيرة الى أطرافها ولا تلبث أن تجاوز الأطراف الى الأقطار المجاورة ،

تلك هجرات دفعت اليها عوامل الطبيعة بفعل الضرورة منذ القدم ، وهي هجرات جعلت للعرب بهذه البلاد روابط جنس قديمة العهد . ثم جاء الاسلام فخرج العرب فى الدفاع عنه والعمل على رفع لوائه ، وهبطوا مصر وانتجعوها والتقوا فيها اما بنى جلدتهم من الأعراب الذين نزحوا اليها مبكرين ، أو بقرابة سامية تطلعت اليهم فى محنتها الكبرى ، ورأت فيهم اخوان فى الجنس ، وان بعدت بين الفريقين أرومة الاتصال — وكان العرب على كل حال بالنسبة لقبط مصر أقرب وشيجة من الروم الآريين .

يضاف الى ذلك ما اصطنعه الولاة من العرب الأوائل من أسكان

البطون العربية أرض مصر واتزالها بعض جهات « الحوف الشرقى » (شرقى الدلتا) . وأشهر حادث من هذا القبيل هجرة « قيس » فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهرى عام ١٠٩ للهجرة ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وفى ذلك يقول الكندى : « وفد ابن الحجاب صاحب الخراج على الخليفة هشام ، واستأذنه فى نقل بطون من « قيس » الى مصر ، فاذن له على ألا ينزلهم القسطا . وقدم بهم ابن الحجاب وأنزلهم الحوف الشرقى ، وأسكنت منهم العشائر فى « بلبيس » وتعلمت الزراعة واشترت الخيول والابل واشتغل أهلها بنقل الطعام (الميرة) الى « القلزم » (السويس) .

وما يقال عن قيس يقال عن بطون أخرى أنزلها الولاة أرض مصر اعترازا بعصبيتها واستظهارا بقوتها .

وفصل المقرئى فى « البيان والاعراب عن بأرض مصر من الاعراب » ، كيف نزحت البطون العربية المختلفة وأنزلت جهات مصر المختلفة .

وكرر عدد العرب من أثر الهجرة الكبرى التى صحبت الفتح والهجرات الصغرى من بعدها ، وكان العرب الوافدون على مصر عنصرا قويا جم النشاط ، أكثر قوة على التناسل من أهل الحضر — وقد تضاعف عدد العرب فى مصر بعد زمن قليل بسبب اباحة تعدد الزوجات والتسرى وملك اليمين ؛ ولم ينقض القرن الأول الهجرى حتى تكاثر العرب ، وكان ذلك على حساب القبط الذين أخذ عددهم فى التناقص النسبى .

° ° °

وجدير بنا أن نبين كيف تم اختلاط القبط بالعرب ، وكيف أحدث هذا الاختلاط شعبا جديدا متحد المصالح والميول ، تعتنق أغلبيته الاسلام ، وتهادن الأقلية غير المسلمة فيه الأغلبية المسلمة ، وتشاركها عواطفها

وعاداتها وميولها ، حتى لقد صح أن وصفت البلاد « بالعروبة » رغم بقاء عدد من أهلها على دينهم المسيحي — فلقد كان من أثر الانسجام الذي تم بين المصريين المسيحيين وبين العرب أن اشترك الأولون في كل ما فرضته العروبة وفرضه الاسلام من العادات والأعراف والطباع وغير ذلك مما أحدثه العرب في هذه البلاد في نواحي الادارة والسياسة والاجتماع والثقافة واللغة ، ونشأت منذ القرن الأول الهجرى للفريقين عادات مشتركة ، وشعور متحد بالمثل العليا ، وروابط مصلحة متبادلة ، جعلت غير المسلمين أكثر استمساكا بالعروبة من العرب أنفسهم ، ولسوف نتبين ذلك رويداً رويداً .



ومن أشهر الهجرات العربية غير هجرة « القيسيين » في ولاية الوليد ابن رفاعة الفهرى ، هجرة عرب جنوبى الشام الذين استوطنوا مصر السفلى والصعيد ، وهجرة آخرين يذكر المقرئى نزولهم في الحوف الشرقى وتزايدهم في خلافة مروان بن محمد ، واسكان فريق من بطون « جذام » الى جوارهم ، ولقد طالما وقعت بينهم المنازعات على نحو ما كان يحدث في كل أنحاء الدولة الاسلامية من تشاحن بين القيسية واليمية مثلاً — ويذكر المقرئى كذلك « بنى عقبة » من جذام الذين نزلوا ما بين ايلة والحوف ، كما نزح نفر من « جذام » و « لحم » الى الاسكندرية ، وكانت لهم بها أيام مشهودة ، ونزل من العرب بصعيد مصر « أولاد الكنز » من ربيعة الذين قدموا مصر في زمن المتوكل العباسى ، وتفرقوا في صعيد مصر ، براربه وأوديته ؛ وانتقلت بطون من « قريش » الى الأشمونين والدقهلية ، وسكنت « جهينه » حول أسيوط وجنوبها ، ونزل « بنو كلاب » بالفيوم ، وسكنت « سعود »

و « جذام » ما بين منية غمر وزفيتا ، ونزلت طوائف من « فزارة » اقليم الغربية و قليوب ، وسكن قوم من « نصر بن معاوية » من هوازن حول تنيس ودمياط ، وكانت لهم شوكة شديدة ، وتكاثر عددهم وملأوا أسفل الأرض (الدلتا) .

وكان من سياسة كل وال عربي أن يستقدم البطون والعشائر التي تؤيده وتناصره بعصبيتها ، فيقوى ويشدد أزره ، ويستطيع بها التغلب على بقية البطون المناوئة — ومن هؤلاء الولاة « حوثة الباهلي » الذي يذكر المقرئ في الخطط قدومه في آلاف من الاعراب ، ومعظم الظن أنهم كانوا من قبس عشيرته .

ومن القبائل التي نزلت وسط الدلتا « بنو نصر » (١) ؛ وكثر عدد النازحين في القرن الخامس الهجري في العصر الفاطمي ، حين استدعى الوزير « اليازوري » (٤٤٢ هـ) بعض القبائل التي كانت تنزل جنوب فلسطين وأقطعها أرض البحيرة .

ومما يحذر ذكره أن كثيراً من العرب الأشداء نزلوا الثغور ورابطوا فيها في سبيل الله . وأقطع العرب الاقطاعات ، يخرجون اليها من رباطهم ، ويحتلطون بالمصريين في أعقار بيوتهم ، « حتى اذا يبس العود ، ومخزن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وانقطع الورد من الشجر ، عادوا الى فسطاطهم على بركة الله » .

وكان نزول العرب أول الأمر في الثغور وفي الفسطاط ، لا يبرحونها الا باذن من القائد ، يكتب لكل قوم بريعهم ولبنهم .
ورغب القبط أول الأمر عن الاختلاط بالعنصر العربي الفاتح ، وظلوا

منعزلين في قراهم ، لا يتدخل عربي في شئونهم ، ولا يجيئهم الا زائرا في فصل الربيع ، ولم تكن هذه العزلة لتدوم طويلا — فمن شأن سكان القطر الواحد الاختلاط والامتزاج ؛ ولم تبدأ المائة الثانية للهجرة حتى انتشر العرب في قرى مصر ، وجاسوا خلالها ، متعريين معالمها ، متقربين من أهلها .

ودأب العرب في سياستهم على أن يتركوا أهل البلاد المفتوحة في مزاوله أعمالهم الخاصة من حرف أو زراعة أو نحوهما ، ونظروا اليهم ، فاعتبروهم دونهم في المكانة الاجتماعية — وذلك دائماً شعور العنصر الفاتح — في الوقت الذي عولوا فيه عليهم في انتاج الغلة التي تقيت المسلمين في البلاد المغزوة بل وفي شبه الجزيرة العربية ذاتها — ولذلك سمي صاحب كتاب الخراج هؤلاء « مادة المسلمين » .

وسواء تحول القبط إلى الاسلام ، أم بقوا على دينهم ، فقد كانت لهم المكانة الاجتماعية الثانية بالنسبة للعربي المسلم — ولكنهم تمتعوا كذمتين بحماية العرب المسلمين لهم ، وأعفوا لذلك من كل التزام حربي ، وقد حال دون قيامهم بالخدمة في الجيش أنهم غير مسلمين ، وفرضت عليهم في مقابل ذلك جزية ، ومُنحوا حق التعامل بقوانينهم الخاصة ، (وقد أبقى الأتراك العثمانيون على هذا النظام في فلسطين وسوريا حتى زمن متأخر) . وكذلك قضى بصر العرب بالأمور أن يبقوا على القبط في خدمة الدواوين أبقائهم على بعض كبار الحكام الروم في مناصبهم ، وكاد عمال الدولة يكونون جميعاً من المسيحيين . وقد كان في وسع العرب أن يستولوا على زمام الأمور ويديروا دقها بأنفسهم ، لولا أنهم أرادوا أن يفرغوا من

اعباء الادارة إلى أمور الحرب والدين، وكان ذلك الابقاء منهم تسامحاً وفطنة في آن واحد، وكانت له نتائجها الطيبة على كل حال .

وأجمع المؤرخون على أن المصريين لقوا في ظل العرب تساهلاً اقتصادياً لم يكن لهم به عهد في حكم الروم — ، فقد أزال العرب ما كان مقررأ من التفريق بين الناس في جباية الضرائب ، واعفاء بعضهم منها ، إذ قضى عهد الصلح بين العرب والمسيحيين أن يدفع الآخرون الجزية في مقابل أن يُبَاحَ لهم في بلادهم ويُدفعَ عنهم ، وكان ذلك عهداً استقر أهل الذمة عليه . وقد طرأ على هذا العهد بعد قرون ثلاثة ، شيء من التغيير ، إذ تقيّد دفع الجزية بشرطين : شرط يجب لزومه في كل الأحوال ، ويقضى بعدم اعتداء المسيحيين على القرآن ، وألاّ يحقّر قول النبي ، وألا يتعرض هؤلاء للإسلام أو يسبّوه ، وألا يتزوج مسيحي بمسلمة ، وألا يُغرّر بمسلم أو يؤذى في ماله أو نفسه ، وألا يُؤلى أعداء الدين ، أو ينصروا ، أو يكرم أغنياؤهم — وشرط آخر يكون اتباعه ولزومه بحسب شرط العقد إن وجد الشرط ، ويقضى بألا يلبس الذميون لباساً متميزاً ، وألا ترتفع منازلهم عن منازل المسلمين ، وألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ، أو بالجهر في ترتيل الصلاة ، (وقد سوى العرب في ذلك بين القبط واليهود) ، وألا يبدوا الصليبان أو يشربوا الخمر علانية ، وأن يواروا خنازيرهم — وقد قبل القبط ذلك واصطلح المجتمع المصرى عليه ، وأصبح نافذاً كالقانون لأن العرف جرى عليه ، ولا يبعد أن يكون ذلك قد توضع عليه منذ أول الفتح وعند أول دفع الجزية .

وكانت تلك الجزية دينارين على كل شخص ، أعفى منها صغار السن الذين

هم دون الحلم، والشيوخ والنساء والمعتوهين والمساكين العاجزين عن أدائها، وكذلك الرقيق — وأغلب الظن أنها لم تكن بمقدار واحد على القادر ورقيق الحال، ففي حين يهبط الديناران الفلاح، لا يكلفان الغنى القادر شيئاً. ويرجح الدكتور بطلر أن الحاكم كان يعطى الخيار فى تقسيم من تفرض عليهم الجزية ثلاثة أقسام: الفقراء، وأوساط الناس، والأغنياء، فكان يفرض على كل فئة قسطاً من الجزية خلاف ما يفرضه على غيرها. ويذكر المقرئ عن يزيد بن مسلم، أن عمر كتب إلى قواده يأمرهم أن يجعلوا الجزية بحيث يدفع الغنى أربعة دنائير، ويدفع الفقير أربعين درهماً. ويقول الماورى « فى الأحكام السلطانية »: أن الفقهاء اختلفوا فى مقدار الجزية — فقال أبو حنيفة أن الجزية مقادير ثلاثة: يؤخذ من الغنى ثمانية وأربعون درهماً، — ومن الأوساط أربعة وعشرون درهماً، ومن الفقراء اثنا عشر درهماً، ويذكر أن هذه المقادير هى الحدود التى ينبغى للولاة ألا يتجاوزوها أو يخرجوا عنها باجتهادهم؛ ولا يسع قارىء الأحكام السلطانية إلا الإعجاب بروح العدل ومراعاة القصد فى نظام الضرائب عند العرب. وهو يذكر أنه إذا نقض بعض أهل الذمة عهدهم، بأن أبوا دفع الجزية لم يحل للمسلمين قتلهم، ولا أخذ أموالهم، أو أولادهم، ماداموا لا يقاتلونهم.

وهكذا أخذ المسلمون قبط مصر بالعدالة التى تجلت فى تأمينهم أيام وفى حمايتهم لهم ما داموا قائمين على العهد، وفى التفريق بين قادرهم وعاجزهم، وذلك من الاسلام غاية القصد والاعتدال.

ويؤثر عن عمرو بن العاص أنه لم يشأ أن يحكم البلاد على هواه، بل استشار

في ذلك الطريق « بنيامين » الذي أشار بضرورة استخراج الخراج في وقت واحد ، هو فراغ الناس من زروعهم ، ورفع ذلك الخراج في أوان واحد ، هو فراغ أهل البلاد من عصر كرومهم ، كما أوصى بكرى الخلجان كل عام ، واصلاح الجسور ، وسد الترع ، واختيار عامل لا يتصف بالظلم ، ليلبي أمور الناس ، ولا شك أن ابن العاص جرى على ذلك في أوائل حكمه على الأقل ، حتى عتقه الخليفة على قلة فيء المسلمين من مصر ، ودافع عمرو عن مصر دفاعاً مجيداً وكتب إلى الخليفة « أن الرّفق بالمصريين خيرٌ من التشديد في أمرهم » (١) ومن ثم كان اغتباط المصريين بالحكم العربي العادل وكان صلاح الحال بين فريقين المصريين ، — وقد حدث في خلافة عثمان أن سعى العرب إلى زيادة ما يجبي من مصر ، وعيّر الخليفة ابن العاص بقوله « أن اللقاح بمصر بعدك قد درت البانها ، — فأجاب عمرو « وليكنها أعجفت فصليها » !

وذلك كله يحملنا على الاعتقاد بعدالة حكم عمرو بن العاص ، وحسن معاملته للذميين . ولا شك في أنه تعذر بعد ذلك امكان الضغط على القبط بفصد زيادة الجزية . أما ما عرف عن تدمير القبط في وقت من الأوقات ، فلم يكن مرجعه المادة ، فلا نزاع أنهم تنفسوا الصعداء على يدي العرب ، وتمتعوا بشمر الأرض التي كانوا يحرقون ، وكانوا من ثمرها فيما مضى في حرمان مقيم — اللهم إلا من كفاف العيش .

ولم تكن الجزية ابهاظاً لهم بحال ، فلقد كانت من الخفة والتراوح بحيث يستطيع أدائها كل من فرضت عليه ، وكان الدخول في الاسلام شرطاً كافياً لزوالها .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص

واننا لنجد في رفض الخليفة « عمر بن عبد العزيز » ما اقترحه عليه « ابن شريح » عامل الخراج على مصر من استمرار فرض الجزية على من يسلم من القبط، وفي تعنيفه له ثم عزله، أعظم دليل على سمو الحكم الاسلامي وعدله وبعده عن الرغبة في ابتزاز الأموال .

وعلى الرغم من ذلك ظل القبط بعيدين عن الامتزاج بالعرب والفناء فيهم من الوجهة الاجتماعية — بينما كان العرب المسلمون أكثرية تسود وتحكم، وتخضع هذه الأقلية لسلطانها كلها رغبت في الانتقال أو جنحت إلى الثوران .

وكان ذلك مرحلة تطور وانتقال في حياة المصريين — ولكن ناموس البقاء من شأنه ان يمزج بين أبناء الوطن الواحد وأن يؤلف بين قلوبهم . وكان لا بد لهذا الامتزاج من أدوار يمر بها ، حتى يتم الاندماج بين المصريين من عرب وقبط — ولا شك أن اشتراك المصالح وحده يكفي للتقريب بين العناصر المتباعدة . وقد كان ذلك هو الحال في مصر — ولاغرو ، فقد جرت الأمور في بلادنا وفق الناموس البشرى العام ، وقربت الشقة مع الزمن بين عنصرى الأمة بوسائل شتى تم بها اختلاطهما واندماجهما .

وقد تم اختلاط العنصرين بالتهادن والتزاوج والتمازج والتجاذب ، فتزوج المسلم بغير المسلمة ، واسلم المسيحي ، واشترك المصريون والعرب في وقت ما في المصالح والهموم ، وذلك حين اندمج العرب في غمار الطبقات العاملة ، وعند ما حرموا من كافة امتيازاتهم في العهد العباسي ، إذ اعتزت الدولة بغيرهم من الترك والفرس في خلافة المعتصم ، الذى أسقطهم من الديوان ،

ومنع عنهم الأعطيات ، فدفعهم هذا دفعا إلى احتراف الزراعة والاستقرار في الأرض ، بعد أن ظلوا طيلة العصر الأموي فريقا متميزا مهمته القتال وحمل السلاح .



وأدى تقاطر العرب بطونا وعشائر غداة الفتح ، إلى انماء الروح العربية في مصر ؛ وعجيب حقا أن تتحول البلاد في قرنين من الزمان من دولة مسيحية إلى دولة أغلبيتها مسلمة وأقليتها باقية على دينها المسيحي ؛ وتفسير ذلك لا يمكن أن يلتبس في مجرد نزوح الأعراب — فليسوا ببالغين عدد القبط من سكان البلاد ، وإنما يلتبس في اسلام القبط أولا وفي استعراهم ثانيا (١) . وقد دفعهم إلى ذلك دفعا ما كانوا يحدونه للطبقة الحاكمة من مزايا الحكم والسيادة ، وما كانوا يرونه في تعلمهم العربية واجادتها من منافع ومغانم — فقد أبقاهم تعلمها على خدمة الدواوين بعد تعريبها ، والحق أن الاسلام قد استهوى

(١) وترى في تهالك القبط الذين أسلموا على الاستعراب قصة طريفة لها دلالتها القوية على رغبة القبط في نسيان أصلهم المصري وإدعاء العروبة ، وتعرف هذه الفصة الطريفة بقصة «الحرس» ، وتتلخص في أن طائفة من القبط الذين أسلموا ذهبوا في خلافة الرشيد إلى أهم من أصل عربي مبالغة في التقرب إلى العرب ، وجمعوا لذلك مالا كثيرا دفعوه إلى القاضي العُمَري ، ليثبت لهم نسبا عربيا ، وقد استعانوا في ذلك بنفر من عرب الحوف ، الشرقي شهدوا أنهم من أصل عربي ، لقاء مال أعطى لهم على سبيل الرشوة ، إذ قرروا أنهم ينتسبون إلى حوتكة من قضاة قبل العُمَري أن يسجل لأهل الحرس نسبا عربيا ، فنار لذلك عرب مصر وهجا الشعراء القاضي العُمَري هجاء مرا من أجل ذلك . ومن هؤلاء «معل بن المعل الطائي» ، و«يحيى الخولاني» ، وعارض العرب في خلافة الأمين في نسب هؤلاء ، وكتب الأمين إلى القاضي البكري أن يحقق نسب أهل الحرس ، فطلب البكري منهم إقامة البينة على صدق نسبهم إلى حوتكة ، وشهد بعض الناس أنهم من القبط ، فردَّهم القاضي إلى مصريتهم ، ومزق سجلهم ، وإن دل هذا على شيء — فهو قوى الدلالة على رغبة القبط في الاندماج السكلي بالعرب اندماجا يجعل من المريقين أمه واحدة .

القبط وضمهم الى حظيرته حين رغبوا في التخلص من دفع الجزية ، وحين أرادوا لأنفسهم المسكنة الاجتماعية الممتازة التي كانت للطبقة المسلمة . وهكذا أدت المنفعة المادية الى دخول القبط في الاسلام وهي نفسها التي أدت الى انتحالمهم العروبة ، ونشأ عن ذلك أن تناقص خراج مصر بسبب اسلام القبط أفواجا ، ولما تناقص الخراج تناقصا أندر بعجز الادارة العربية عن القيام باعبائها ، كتب بذلك « حيان بن شريح » عامل الخراج على مصر الى الخليفة « عمر بن عبد العزيز » يشكو اليه قلة خراج البلاد واضطراره الى استدانته المال سداً لرواتب الجند ؛ وطلب « ابن شريح » الى الخليفة ألا يعنى من الجزية من يسلم من القبط — ولكن الخليفة العادل لم يقره على رأيه ، وكتب اليه كتابا شديدا وعزله عن جباية الخراج . ومن ماثور قول الخليفة في ذلك « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »

أعجب القبط بسماحة الاسلام وابطاحته تأدية العبادات الاسلامية باللغة المحلية باذن من النبي عليه الصلاة والسلام ، كما أباح الامام أبو حنيفة القاء خطبة الجمعة بلغة القوم — لأن ذلك كان ضرورياً أول الأمر . وكان ذلك الى حين — فلم يلبث معتنقو الاسلام أن حذقوا اللغة العربية — لغة القرآن ، وأخذوا يؤدون بها الفرائض والعبادات ، ولم ينقص طويل زمن حتى تمكن العرب بنشاطهم الكبير من فرض لغتهم على البلاد جميعها ، كما فرضوا عليها دينهم من قبل .

وفي الاسلام خصائص تقربه من نفوس البشر ، فهو دين الحرية والعلم

والمعرفة، وهو دين التطور والرقى والطموح الى المثل العليا فى الحياتين الروحية والمادية جميعا.

وفى طبائع رجاله اعتصام بالصبر وشجاعة وكرم ونجدة ووفاء — وكلها سجايا حميدة، يضاف اليها خصلة لم تكن للروم من قبلهم، هى أنهم كانوا يعتدّون بعدومهم بينما كان هذا العدو يحتقرهم ويغض من شأنهم لأنهم كثيراً ما أغاروا على بلاده حين كانت تقحط بلادهم ويحتبس عنهم ماء السماء.

وأن فى أخلاق الخلفاء والقواد لمثلاً عليا فى العدل والاحسان — أنظر إلى الخليفة يوصى قائده وهو يوجهه إلى قتال الروم فى الشام بقوله: «إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له..» (يريد بهم الرهبان)، ويقول له «ولا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هراً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامراً، ولا تغلّ» (١).

ثم أنظر إلى زهد الخليفة عمر رضى الله عنه فى عام اشتد فيه الجذب، وعظمت كارثة الجوع فى شبه الجزيرة إذ يقول: «إنى حريص على أن لا أدع حاجة إلا سدتها، ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا، تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف.. كيف يعينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم، ويقسم ألا يذوق سمناً أو لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس، وجعل يثرد بالزيت حتى تغير لون بشرته، ثم ينحر جزوراً يطعمها الناس فيغرفون له طيبها، فيؤتى بقدر من سنام ومن كبد فيقول: إنى هذا! — فيقال له

يا أمير المؤمنين من الجذور التي نحرنا اليوم، فيقول « بخ ! بخ ! بش الوالي أنا -- أكلت طيبها ، وأطعمت الناس كراديسها ! ارفع هذه الصفحة ، هات لنا غير هذا الطعام ، فيؤتى بخبز وزيت ، فيكسر ويثرد في ذلك الزيت ، ويرسل الجفنة إلى ناس مققرين ،

أنظر ماذا كان الخليفة عمر يفعل بنفسه مواساة للرعية التي قست عليها الطبيعة عام الرمادة ، ثم قارن زهد ابن الخطاب وورعه وقناعته وعطفه بجشع الرومان واعتسافهم ونهمهم ، وتبين كيف كان القبط في حكم الروم يقاسون الأمرين اضطهاداً وجوعاً ، وكيف كان تطلعهم إلى الاسلام تطلع خلاص ورحمة !

لقد حض النبي عليه الصلاة والسلام على اكرام القبط والاحسان اليهم ، بقوله عليه السلام في مرض له : « استوصوا بالآدم الجعد خيراً » — فسألوه عن الآدم الجعد فقال قبط مصر ، — فانهم أخوال وأصهار ، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم — فسل رسول الله كيف يكونون أعواناً على ديننا ، فقال « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة — فالراضي بما يؤتى اليهم (من الخير) كالفاعل بهم (أى كفاعل الخير بهم) والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم ، كالدافع عنهم. (١) »

بهذا الروح وفد العرب على مصر ، فكان وفودهم عليها علاجاً لعلها الاجتماعية والاقتصادية والدينية جميعاً ، فأمجى على يديهم نظام الطبقات الذي كان سائداً في عهد الروم ، وعانى المصريون من جرائه هوأنا شديداً

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة هنري ماسيه (مطبعة مجلس المعارف الخاص بالعادات

وضعة وحيطنة شأن بالغبين - وصلحت بسبب عدل العرب فى جباية الضرائب حالة البلاد الاقتصادية ، فقد عدلوا نظام الضرائب ، فجعلوها متناسبة مع غلطة الأرض صعودا وهبوطا ، وتنوعت جزية الرؤوس بحسب المقدرة ، وأعفى منها النساء والعجزة والأطفال ، واستشعر المصريون كثيرا من الراحة والاطمئنان فى ظل هذا النظام العادل الذى روعيت فيه أحوال الناس وأحوال الأرض ، وتخلصوا من أعباء ثقيلة طالما ناءت بها ظهورهم . ومن الناحية الدينية انتهى بالفتح الإسلامى ذلك النزاع الطويل من أجل العقيدة بين القبط وبين حكمهم من الروم ، وبطلت الخلافات المذهبية نهائيا ، وساد مذهب المصريين ، وعلا شأنه فى ظل الحرية التى كفلها الإسلام للذميين ممن لم يعتنقوا دين محمد . وتمتع القبط بالهدوء الذى حرّمه أحقابا طويلة ، وكان ذلك من نعم الإسلام على المسيحية ومآثره عليها - وحقق الإسلام للقبط مبادئ العدل الاجتماعى ، وبدونه لم يكن للمصريين اليها من سبيل .

وبقى القبط قوة (رغم دخول الكثير منهم فى الإسلام) حتى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكانوا مائز الو ن بعيدين عن الاندماج السكلى بالعرب ، يحدثون الثورات من آن إلى آخر - وكانت أشد تلك الثورات ، الثورة التى حدثت فى خلافة « المأمون » ، واضطر الخليفة أن يأتى إلى مصر بنفسه لاحتادها ، وفى هذه الفتنة قتل كثير من القبط ، ودخل منهم كثيرون فى الإسلام ، وانصهروا فى القومية الجديدة .

ونزل العرب عن شعور السيادة الذى ظل يلزمهم طوال القرنين الأول والثانى حينما حلت بهم النازلة الكبرى فحرموا فى عهد المعتصم العباسى مما

كان لهم من امتيازات ، وأدى ذلك الى نزولهم الى معترك الحياة العامة ، واشتغالهم بفلاحة الأرض والاستقرار فيها واحتراف الزراعة . حدث ذلك في الربع الاول من القرن الثالث الهجرى — وانتهى عصر السيادة العربية بانتهاء ولاية عنبسة بن اسحق الضبى (٢٣٨ / ٢٤٢ هـ) وكان ذلك نهاية الجفاء بين العرب والقبط ، اذ جمعهم بعد ذلك احداث الزمن على غرض واحد هو الحياة الهادئة المطمئنة في ظل حكومة تقيم العدل وتمنح حرية العقيدة . وبدأ العرب والقبط فصلا جديدا في التاريخ المصرى ، وتذاكر الفريقان المتهادنان صلات الرحم وأواصر الجنس ، وابدى القبط أعجابهم بسماحة الاسلام ، وذكر العرب استيلاء النبي بقبط مصر ، كما ذكروا السهولة التى اعتنق هؤلاء بها الاسلام ، والخدمات الجليلة التى أدوها للإدارة العربية . وما أن تم ذلك التهادن فى اوائل المائة الثالثة من الهجرة ، حتى أخذ القبط الى السكينة اخلادا تاما — والحق ان ذلك كان المرحلة الاخيرة فى تاريخ الامتزاج بين الفريقين ، ذلك الامتزاج الذى بدأ بارتياح القبط الى الاسلام الذى اخرجهم من ضيق وآمنهم من خوف ، ثم ظهرت علائمه فى اشتراك القبط فى الادارة العربية وفى اضطلاعهم بالحرف والصناعات ومسائل الفنون على اختلافها . والمعروف انهم خدموا المسلمين فى هذا الميدان خدمة جلى لا تقل عن خدمتهم لهم فى ادارة الاعمال .

ويتميز هذا القرن الثالث الهجرى بنضوج قومية مصرية اسلامية متعددة المظاهر قوية الطابع لا تعرف الخلافات الدينية ، تعترف بالمصالح المشتركة بين الطوائف ، يحدوها التعاون الصادق على النهوض بمرافق البلاد بغية الحصول على مكانة لا تفتقر تحتها مصر بين الامم .

٦ — أمة مصرية اسلامية

مظاهر أمة مصرية اسلامية

(أ) مظهر سياسى

(ب) مظهر فنى

(ج) مظهر أدبى

المظهر السياسى — ١

خلق جدير تألف وتآخ — ولادة من العرب يضربون مثلاً أعلى فى التسامح — لم تقو الاحداث على ابعاد عنصرى الامة بعضهما عن بعض — العربية تسود — ذهاب القبط فى الاستعراب إلى أقصى الحدود — اندماج القبط فى الكتلة المسلمة اندماج مصلحة — زواج الاعراب بكثير من نساء القبط — أثر ذلك التمازج فى الاندماج العام — تعاون وتساند على تسكليف الحياة اليومية بين الفريقين - خلق جديد : أمة مصرية اسلامية ذات شخصية ظاهرة فى القيصرية الاسلامية - اشتراك هذه الامة فى الاحداث العامة وتأثيرها القوى فيها - دلائل الحيوية فى الشعب الجديد - نضوج القومية الجديدة - التمسك للاستقلال الطولونى - الاستقلال الطولونى خاتمة جهاد قرون ستة - أو تزيد .

امتازت هذه الامة الجديدة بكل ما تتصف به الامة المتحدة ذات الشخصية الفعالة. وأصبح لها من صفات القومية المكتملة فى السياسة والفن والأدب ما تتميز به عن غيرها من الأمم التى كانت تكون جسم الدولة الاسلامية الكبرى .

ولا تعوزنا الأدلة على نضوج الامة المصرية الاسلامية غداة الفتح — وهو النضوج الذى يتمثل فى ذلك المظهر السياسى الذى ظهرت به مصر مشتركة فى احداث العالم الاسلامى اشتراكاً قوياً فعالاً .

ولم يكن بد لأمة جديده ناهضة تريد الظهور على مسرح العالم السياسى

بمظهر الوحدة، من اتفاق يقضى على كل خلاف تكون العنصرية سبب مثاره. ويسوق التاريخ أمثلة عديدة على تسامح العرب مع القبط منذ اللحظة الأولى، فقد احتفظ عمرو و « بناس » على رأس الادارة العربية، كما عين « شنوده » و « فيلكسنوس » حاكمين على الريف والفيوم، وكان ثلاثتهم على أتم وفاق مع المسلمين، بذلوا جهودهم في مساعدة الحكومة العربية على تحصيل الضرائب متوخين العدالة التي كانت مزية المسلمين الكبرى بعد حكم الروم الجائر.

واختلط الفاتحون العرب في الريف والقرى بأهل البلاد، وغدت فتيات « سننيس » بالذلتا أمهات لكثير من مشهورى المسلمين لقبولهن الزواج من الجند الاعراب. وكان ذلك الاختلاط يقع عادة في موسم الفيضان حين تخضر الأرض وتكثر الخيرات، ثم لا يلبث الاعراب أن يعودوا إلى فسطاطهم — وذلك وفقاً لنصيحة القائد الأعلى (١). ومن مآثور قوله: « تمتعوا في ريفكم بما طاب لكم، فاذا يبس العود، وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض اللبن، وصوح البقل، وانقطع الورد من الشجر، فحي إلى فسطاطكم على بركة الله »

ومن أدلة الألفة المبكرة ما يذكرونه عن احسان المسلمين إلى حلفائهم من القبط اليعقوبيين دون سواهم من اتباع الكنيسة الارثوذكسية. ومن أمثلة ذلك اباحة والى مصر مسلمة بناء كنيسة قبطية خلف قنطرة الفسطاط، ومن مظاهره أيضاً إقامة والى عبد العزيز بن مروان بالدير القبطى فى « طمويه » عندما اعتلت صحته وأصيب بداء الأسد وأشير عليه

بهجر ممفيس إلى مكان أكثر جفافاً؛ وكان ذلك المقام مقدمة لانشائه حلوان واتخاذها منها مصحاً ودار ملك . وعلى الرغم من ذلك جاء ولاية رؤا في التسامح تطرفاً لا يجوز صدوره عن مسلم ، فاشتدوا وذهبوا في التضييق على القبط إلى حد حرمانهم حرية الملبس وحرية التصرف وحُطمت صور المسيحيين في الكنائس ، واقتربت هذه الحركة بحركة طيبة جاءت نتيجة مباشرة لها ، هي حركة « تعريب الدواوين » ، في أواخر المائة الأولى للهجرة ، فقد بدىء باحلال العربية محل القبطية وأصبح لا بد للقبط ، إن هم أرادوا البقاء في خدمة الادارة العربية ، من حذق العربية ، لغة الفاتحين ، للتدوين بها . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تعريب البلاد — وتابعوا بها خدماتهم للمسلمين وأخذوا يتعاملون بها في أمورهم الخاصة ، وأدركت العربية عباداتهم ، فغزت الكنائس وصحبا الخط العربي فنسخ به الانجيل ، وتداوله القبط في معاملاتهم اليومية — وهكذا ذهب القبط في استعراهم إلى أقصى الحدود ، وكانوا في ذلك يسايرون العرب ؛ وهم في هذه المسيرة يأخذون بالطفرة ، لأنهم كانوا يبتغون الاندماج في الكتلة المسلمة في سرعة الراغب في الامتزاج ، تحذوهم المنفعة ، أو يدفعهم عامل من عوامل المصلحة الشخصية .

وانتهت ثورات القبط في الخوف الشرق وفي غيره من مناطق الدلتا كسبخا وسمنود وغيرهما من معاقل القبط بالتفاهم على المصلحة المشتركة . وتزوج الأعراب بكثير من نساء القبط ؛ وكان لذلك التصاهر أثره الطيب في الامتزاج النهائي . ولم يبق هناك من فارق بين القبطي والمسلم إلا فارق الدين — أما الدم والجنس فقد ثبت أنهما اشتراك وامتزاج ، وأما من حيث

اللغة فقد سادت العربية وساد معها الخط الذي كتبت به ، ونشأت للقبض عادات مقتبسة من العادات العربية ، وتحتم على الفريقين بحكم هذا الاتصال التعاون والتساند ، يتخذ كل من زميله عوناً على قضاء الحوائج اليومية ومطالب الحياة المختلفة .

تكونت على مرّ القرون الهجرية الثلاثة الأولى أمةٌ مصرية عربية اسلامية متحدة الغايات ، لها كيان سياسى ظاهر ، ولها شخصية واضحة في الدولة الاسلامية الكبرى ، تؤثر فيها تأثيراً ايجابياً وتشترك في أحداثها اشتراكاً فعلياً . وكان من جراء ذلك أحداث جسام سوف نأتى على ذكرها موجزين . والواقع أنه رغم اختلاف الدماء في هذه الأمة الجديدة ، يحق القول بأن هذا الشعب الذى تم تكوينه في مدى قرون ثلاثة أو ما يقرب من ذلك ، شعب مصرى اسلامى لا يصح التشكك في مصريته ، لمجرد أن به دماء مختلطة ، ففقاوة الدماء في شعب من الشعوب غير ممكنة ، لأن الشعوب الانسانية لا تبقى متباعدة ، فبين أمم الأرض المختلفة في كل زمان وكل مكان امتزاج دائم لا ينتهى ، امتزاج لا يكاد يترك بالعالم أمة خالصة الدم — فالشعب الفرنسى خليط من الغاليين والفرنجة والانجليز مزيج من السكسونيين والسكتيين . ولم يكن ذلك الاختلاط في يوم من الأيام عائقاً في سبيل الوحدة أو حائلاً دون بلوغ الأغراض القومية ، والفضل في ذلك يرجع بلا شك إلى الوقت والبيئة ، فمرور الوقت يسمح بالتقارب والتعارف والتآلف ، والبيئة تؤثر على الطبائع المختلفة ، فتجعل منها طبيعة واحدة ، أو هي بعبارة أخرى ' تأقلم ' هذه الطبائع ، وتؤلف بينها وبين المسكان ، وتخلق ذلك

الانسجام الأبدى، وتوجد ذلك الرباط المقدس الذى يربط الناس بأوطانهم رباطاً لا انفكاك له .

وفق هذا الناموس العمرانى تكون الشعب المصرى الاسلامى — وكان الفتح العربى وهجرة البطون العربية ونزولها بمصر واختلاطها بالمصريين اختلاط مصاهرة، بمثابة تلقيح لامة عريقة فى القدم بامة اخرى عهدا بالبدواة قريب (١) . ونحن نلاحظ فى هذا الامتزاج الذى تم فى مدى قرون ثلاثة تقريباً ظاهرة جليلة هى دوام اتصال هذا الشعب الناشئ ببلاد العرب ، مشتركاً فى أحداثها اشتراكاً يتبين فى «مقتل عثمان» حيث تواطأ القتل (٢) على الحدث الخطير فى مصر دون غيرها من البلاد الاسلامية . وآزرت مصر «علينا» فى خلافه مع «معاوية» ، وكانت (مصر) تحتل فى ذهن معاوية مكانةً ممتازة ، وكانت له بها جهود كبيرة ترمى الى نشر نفوذه عليها ، وله فى ذلك اخبار مع «قيس بن سعد بن عباد» الوالى على مصر من قبل على بن ابي طالب ، وفى هذه المحنة ظل هوى المصريين مع على حتى استطاع معاوية ان يفتحها الفتح الثانى على يد عمرو بن العاص ، ويقتل محمد بن ابي بكر .

ولما حدثت الفتنة الثالثة وهى حرب عبد الله بن الزبير مع الأمويين ، وقفت مصر فى صف ابن الزبير واعترفت بخلافته .

وفى ذلك الحادث الكبير ألا وهو سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية فى أعقابها ، نجد المصريين يشايعون بنى العباس ، فيُقتل «مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى أمية فى ديارهم ، ويدخل العباسيون مصر بدون حرب ، ويُستقبلون فيها استقبالا حسناً .

(١) مقال للاستاذ محمد فريد ابو حديد فى صحيفة مدرسة فؤاد الاول الثانوية

(٢) محمد بن حذيفة ومحمد بن ابي بكر .

وفي خلافة المنصور العباسي حدثت الفتنة المعروفة التي أضرم نارها «العلويون» في الحجاز بقيادة «النفس الزكية»، وفيها ينضم المصريون الى مثيري الفتنة، فيأمر الخليفة المنصور بقطع «الميرة» من مصر الى الحجاز، وردم الخليج الموصل الى القلزم.

وفي الخلاف الذي شجر بين الأمين والمأمون، وقف المصريون الى جانب المأمون وخلعوا الأمين.

وهكذا كانت مصر دائماً الاتصال بالأحداث السياسية الخارجية، تساهم فيها مساهمة ذات بال — وان قلنا مصر، فانما نقصد العرب فيها والمستعربين دون بقية من القبط الذين بقوا في معزل عن الشعب الجديد.

وكان اتصالها بأحداث العالم الاسلامي عامة دليلاً على حيويتها ويقظتها وشعورها بشخصيتها. ولا مرأى في انه كان هناك رأى عام يتخذ لنفسه في الأمور الاسلامية العامة قراره الخاص، ويدأب على تنفيذه جاهداً، هو رأى أمة متكاملة الصفات.



ومن دلائل الحيوية في الشعب الجديد، ما كان يقوم به العرب والقبط معاً من آن لآخر من الثورة على نظام الخراج في العصر العباسي، والواقع ان اشتراك الفريقين في التبرم بأمر من الأمور العامة، هو الدليل القوي على اندماج العنصرين واشتراكهما في الأرزاء والمصالح. ومن ذلك ما حدث من ثوران العرب والقبط عام ٢١٦ للهجرة حين اتى المعتصم موفداً لقمع الثورة من قبيل المأمون، وفي عام ٢١٧ للهجرة حين اتى المأمون بنفسه وقضى على تلك الثورة المشتركة. وكانت رحلة المأمون الى مصر قضاء على كل ما كان بها

من قن، وآخر، مرحلة من مراحل المزج بين عنصرى الامة، بل وآخر ما كان ينشأ بين العرب بعضهم وبعض بسبب العصبية من خلاف — اذ لا نكاد نسمع بعد ذلك عن ثورة يقوم بها القبط على الحكم العربى، أو عن ايام يتشاحن فيها العرب كأيامهم الاولى. ويتصف القرن الثالث الهجرى فى مصر بأنه القرن الذى تم فيه الامتزاج بين العرب والمصريين، واخذ فيه كل من الفريقين الى الحياة الهادئة. وفى هذا القرن ذهب عن العرب صفة التميز واسقطوا من ديوان العطاء — حرمهم من ذلك الولاية العباسيون الذين آثروا الاتراك على العرب، وكان آخر الولاية العرب بمصر «عنبسة بن اسحق الضبى»، وبزاول ولايته انتهت تلك المنزلة السامية التى كانت للعرب فى مصر، وظهر على اثر ذلك شعب مصري اسلامى، لا اثر فيه لسيادة عنصر على آخر، اللهم ما كان من سيادة الترك الولاية الذين كانوا يمثلون السلطان العباسى — وكان ذلك آخر العهد بفوارق الجنس وفوارق الطبقات، واول العهد بظهور الامة المصرية الاسلامية.



وما يُستدل به على نضوج الفكر المصرى فى تلك الفترة من الزمن وادراكه قيمة نفسه، تتكون «رأى عام» يشترك فى الأحداث الخارجية، ويدل فيها برأى، ويعبر عن سخطه على امر من الامور الداخلية بالثورة. وتظهر فى هذا العهد فكرة الحكم المنحصر فى أسرة، وهى فكرة تدل على نضوج قومى كبير بلغته مصر قبل العصر الطولونى. وقد مكّن ذلك النضوج القومى للوالى القوى الشكيمة من ان يؤثر فى الرأى العام، فيذكر صاحب كتاب القضاة والولاية ان السرى بن الحكم ولى باجماع جند مصر على صلاتها وخراجها، ثم يعزل ويولى ثانية سنة (٢٠١/ ٢٠٥ هـ) ثم يولى ابنه «أبو

نصر بن السرى « (٢٠٥ / ٢٠٦ هـ) ثم يولى « عبد الله بن السرى » سنة ٢٠٦ هـ / ٢١١ هـ) أى انه فيما بين عامى ٢٠١ و ٢١١ للهجرة كانت بمصر « دولة » السرى بن الحكم وأولاده تحكم البلاد حكما استقلاليا خارجا عن سلطان الخليفة العباسى — وتلك أول محاولة للانفصال عن السلطة العليا بعد نضال طويل دام اكثر من ستة قرون .

وهكذا كانت فكرة القومية قد بلغت كمالها قبل ابن طولون — بظهور رجل مهد للنهضة الطولونية الاستقلالية — هو « السرى بن الحكم » الذى انتزع مصر من الوالى العباسى ، واعقبه ابنه فى هذا المضمار ، وشايعه المصريون فى نزوعه الى الاستقلال والتحرر .

وقيام السرى بن الحكم وابناه من بعده بهذه الحركة الانفصالية ، يؤيد ما نريد أن نذهب اليه من ان الاستقلال الذى حققه « ابن طولون » كان وليد جهاد قرون ستة أو تزيد ، ناضل فيها المصريون عن حريتهم المسلوبة ، بأسلوبهم الخاص الذى تحلوا فيه بالجلد والصبر والناة ، وخرجوا من نضالهم آخر الامر بالمطلب الاسمى — وهو التحرر من سلطان الاجنبى .



البطل في شخص ابن طولون

ليس الاستقلال الطولوني طفرة سياسية - إن هو إلا نضوح قوى - شعب مصرى ذو وجود مستقل - فكرة الحكم المنحصر فى أسرة ، والتعويل على « رأى العام » ، ودلائهما على النضوج - نظام انقطاع مصر لوال يمسك فى بغداد يساعد على الاستقلال بها - شخصية البطل قوية يقظة نهضة للفرص - قبض اليد عن الخليفة أول مظهر من مظاهر الاستقلال - امتلاك الشام يحقق السيادة الخارجية - عود إلى مجد الفراعنة بعد قرون عدة - الاستقلال عن الخلافة واعتراف الخليفة بالأمر الواقع - ليس بضائر شعباً أن يكون حكامه من الأجانب ولا يمتنع ذلك من حقيقة استقلاله فى العرف الدولى - طور جديد من أطوار الوطنية المصرية — يستعرب فيه المصريون أكثر مما يستعرب الأعراب - الاستقلال عند المصريين غاية لا تعدلها غاية - ابن الخليفة يحكم مصر مستقلاً بها فترة بعد زوال حكم الطولونيين - الطولونيون يحققون لمصر مزايا الدولة كما تفهمها الأجيال الحديثة - تبادل النفع بين الحاكم والمحكوم - شئ لم تتمتع به مصر منذ انقضاء عهد الفراعنة - تعلق الناس بالحكم الطولونى ومعزى ذلك التعلق .

يذهب بعض المؤرخين ومنهم الدكتور « فيليب حتى » إلى أن مصر لم تتمتع منذ انقضاء عهد الفراعنة بحكم استقلالى قومى ، إلا فى زمن الفاطميين - أما الحكم الطولونى والحكم الأخشيدى ، فلا يرى فيهما حكماً يتخذ من القومية سنداً له - وإنما يرى فيهما حكماً يقوم على قوة الشخصية ، ويستفيد من انحلال الخلافة العباسية فى بغداد .

وقد لا تكون بنا حاجة بعد الآن إلى توضيح المراحل التى مرت بها مصر حتى أدركت العصر الطولونى ، وكلها مراحل نمو ونضوج وتطلع إلى الاستقلال ، تجلت آخر الأمر فى فكرة الحكم المنحصر فى أسرة ، تلك

الفكرة التي حققها « السرى بن الحكم » ، وأولاده من بعده حتى لم يعد هناك مجال لقول بأن الحكم الطولوني أو الحكم الأخشيدي كان « طفرة سياسية » زالت آثارها بزوال محدثيها ، فالعبرة في موضوعنا ليست بشكل الحكومة طولونية كانت أو أخشيديّة أو فاطمية — وإنما هي بالشعب الذي يقف من وراء هذه الحكومة أو تلك ، يسبغ ويكره ، ويقبل ويرفض ، ويشايح ويناهض ، وهو في كل ما يصدر عنه مصريّ النزعة والمشاعر ، فطنٌ إلى الأفاعيل ، يرقب الحوادث ويتخذ فيها قراره الخاص ، ويتحلى بالإنابة ، ويتحين الفرص لتحقيق أغراضه وإثبات وجوده المستقل .

وهذا الشعب المصري الاسلامي الذي تم تكونه في القرن الثالث الهجري كانت له مثله في الحياة ، وطرأته في العيش ، وأساليبه في الفنون ، ومذاهبه في الدين والأدب والثقافة .

ومنذ عام ٢٤٢ هـ - ٨٥٦ م أصبح ولاية مصر من الأتراك ، وكانت قد منحت البلاد قبل ذلك بعشرين عاماً لعدد من هؤلاء أقاموا في بغداد ، وعينوا نواباً عنهم لحكمها .

ولقد كان انتقال البلاد من يد حكام من العرب الخلفاء إلى يد حكام من الترك نذير تلك الحركة التي دبّ ديبها في كل أنحاء الدولة الإسلامية تقريباً ، وانتهت في أكثر من مكان بانتزاع الولاية للسلطة الزمنية من يد الخليفة العباسي — والجنوح إلى الاستقلال .

جاء ابن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فوجد على خراجها

ولعل ذلك كان أول العهد بالاستقلال الفعلي — فقد انطلقت يد ابن طولون بعد ذلك تتصرف في شؤون البلاد — يعين عامل الخراج ، ويولى من قبله حاكم الثغور، بعد أن كان ذلك من شأن الخليفة وحده . ولما انتهى امر مصر الى ابن طولون ، وكثر جنده وحاشيته ، بنى لهم مدينة « القطائع » على جبل يشكر ، وشيد القصر والميدان والمسجد المعروف والعين^(١) والبيمارستان ، وحصن الجزيرة^(٢) ، واكثر من العطايا يبعث بها الى الخليفة « المعتمد » . وعظمت صداقته^(٣) ، وزاد أنفاقه على ممالكه وعسكره وتضاعفت صلاته للعلماء ، وكان ذلك سببا في قبض يده عن الخليفة بعد بسطها ، فلم يستطع أن يرسل شيئا الى الخليفة « الموفق » ، فحق عليه الخليفة واراد الخلاص منه بعزله عن ولاية مصر ، ولكنه عجز عن ذلك ، اذ حالت قلة المال لديه دون انفاذ عزمه — وانهز ابن طولون فرصة موت « أماجور » والى الشام ، وساق اليها جيوشه ، فسلبت دمشق ، واتى اليه وجوه البلاد يقدمون فروض الطاعة ، وبفتح الشام تحققت لمصر « السيادة الخارجية » التي كانت قد فقدتها منذ انتهت ايام الفراعنة الذين نشروا لواء مصر على ربوع الشام وضافا الفرات ، وبلغت سطوة ابن طولون ما كانت قد بلغت من قبل سطوة « طوطميس » فكان له في « قريقساء » على الفرات ، حامية حربية وضع عليها ابن صفوان — وتطلع ابن طولون الى الاراضي المقدسة ينبغي الاستيلاء على مكة ، ولكنه عجز

(١) وهي السقاية أو قناطر ابن طولون الآخذة من بركة الحبش بالقرب من بساتين الوزير ، جنوبي القاهرة .

(٢) جزيرة الروضة

(٣) انظر صداقات ابن طولون (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧)

عن ذلك، وُلِّعَين في المسجد الحرام. وضايقه هذا الفشل السياسي وحفزه على إنفاذ سياسته التي وضعها منذ اللحظة الأولى، وهي سياسة الانفصال بهذا الشعب المصري الناضج عن جسم الخلافة العباسية، فقطع اسم الموفق نائب الخليفة من الخطبة، وسك العملة باسمه، وخرج بذلك خروجا تاما عن طاعة الخليفة (١).

وذهب ابن طولون في خروجه على الخلافة الى حد أن جمع مجلسا من القضاة والفقهاء في دمشق اعلن فيه خلع الموفق، وحرمانه من الخلافة بحجة سوء معاملته لآخيه الخليفة المعتمد؛ وخرج على اجماع هؤلاء الفقهاء «القاضي بكار» فسجنه، وأطال سجنه حتى هزل ومات. ولم يعبأ ابن طولون — وهو يرغب رغبته القوية في الاستقلال بمصر بما صب عليه من اللعنات على منابر المساجد في أرجاء الدولة الاسلامية.



وانتصرت جيوش مصر على الروم قرب طرسوس سنة ٨٨٢م، وتأثرت صحة الرجل اثناء هذه الغزوة ضد الروم، ومرض ومات على أثرها — وخلفه في حكم البلاد ابنه «أبو الجيش خمارويه» الذي ثبته الخليفة في ولاية مصر والشام ومنطقة الثغور على حدود الروم ثلاثين سنة. وحسنت العلاقات بين عاهل مصر والخليفة — فزوج الأول ابنته «قطر الندى» للخليفة في موكب عرس لم يسمع الناس بمثله في قديم الزمن أو حديثه. وزادت علاقة مصر المستقلة بالخلافة توطدا بهذه المصاهرة.

وجاء من بعد خمارويه ابنه «أبو العساكر جيش» وكان مستهترا، لم يفتن

(١) بعد ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقش اسمه على العملة دليل الخضوع الرسمي للسلطة العليا — وحذفهما عقوبا وانتقاصا على هذه السلطة.

الى المسكنة السامية التي أوجدها أبوه وجده لمصر في الدولة الاسلامية
الكبرى . وفي زمنه فقدت مصر حكم الشام ، وهددتها غارات القرامطة .
وانتهز الخليفة حالة الاضطراب والفوضى التي وقعت مصر فيها بسبب
ضعف هذا الحاكم ، وأرسل جيشاً قضى على القرامطة بالشام قبل أن يغزو
جيشهم مصر ، ودخلها موفداً من قبل الخليفة العباسي القائد «محمد بن سليمان»
الذي قضى على أواخر الطولونيين ، ودخل الفسطاط وأحرق القطائع وأباد
كل ما وجد من آثار بني طولون . وعادت مصر إلى حكم الخلافة العباسية
مدة ثلاثين سنة (٢٩٢/٣٢٣ هـ) إلى أن قامت بها الدولة الأخشيديّة .

وبما تجدر ملاحظته أن الأسرة الطولونية استطاعت لأول مرة في
تاريخ مصر الاسلامية أن تحكم البلاد حكماً وراثياً مستقلاً .
كما نلاحظ أن هذه الدولة عملت جاهدة على رفع مستوى الحياة والمدنية
بما أضافت من منشآت لم يكن لمصر الاسلامية بها عهد قبلها .
وتعلق المصريون بهذه الدولة تعلقاً تبين في أسفهم على زوال حكمها
ورثائه (١) .

توجت حركة النضوج القومي في منتصف القرن الثالث الهجري بالاستقلال ،
وليس يعيب شعباً من الشعوب أن يكون حكامه من أصل أجنبي ، وليس
بمنقص ذلك من قيمة استقلاله في العرف العام ، فمن الدول الأوروبية

(١) انظر ما قبل في زوال هذه الدولة من اشعار — النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٢ / ٥٤

العريقة في الاستقلال، ومنها انجلترا من نجد بيت الملك فيه موصولا بعنصر أجنبي — دون أن يكون في ذلك ما يشوب صفة الاستقلال في اعتبار العرف أو في اعتبار القانون الدولي — فاستقلال الدولة لا يزول بهذا، وإنما يزول بتبعيتها لدولة أجنبية، وليس يكفي لاعتبار أمة من الأمم غير مستقلة أن يكون حكامها من أصل أجنبي، وإنما تكتب عليها الذلة وتفقد كل معاني الاستقلال إذا رضيت حكم الأجنبي طائعة أو أسلست له القياد مختارة، وذلك ما لم تفعله مصر في أشد عصورها محنة وأكثرها أذى واعتسافاً.

والحقيقة أن البلاد بدأت بالفتح الاسلامي تدخل في طور جديد من أطوار وطنيتها، أخذت فيه تمنع في الاستعراب وتأخذ بأسبابه على خلاف ما كان ينتظر من تمصر العرب ونزولهم إلى معترك الحياة واندماجهم في أهل البلاد — ومن عجب ألا يفعل العرب ذلك إلا بعد أن يكثر اسلام القبط ويتم استعراهم، وعندما يهب الفريقان متكاتفين من أجل غاية واحدة هي الخلاص من جور بني العباس — وقد كان هذا غداة ذلك الانصهار الذي تم بين الفريقين، فيكون منهما أمة واحدة، متحدة الغايات، مشتركة المصالح.

ولعل هذه الظاهرة العكسية التي نشاهدها في استعراب المصريين دون تمصر الأعراب، راجعة إلى بقاء العرب حقبة من الزمن بعيدين عن الاندماج الاجتماعي بالعنصر المصري — من ناحية، وإلى أن الاسلام استهوى المصريين بما فيه من مزايا التسامح والعدل والمساواة — من ناحية أخرى، تلك المزايا التي جذبت اليه النفوس العvisية، وأنزلتها عن معتقدها وعاداتها وتقاليدها، وأسرعت بها نحو الدين الحق، ولسانه العربي المبين.

وسلخت مصر بعد سقوط الطولونيين ثلاثين عاماً في حكم العباسيين ، كانت في أثنائها مسرحاً للفوضى والاضطراب الشديدين ، بلغ في خلالها حنين المصريين إلى الحكم المستقل درجة عظمى ، وذكر الناس بالخير عهد الطولوليين ، لأنه كان عهد حكم ذاتي مجتنب إلى النفوس — ذلك الحكم الذي ارتقبه المصريون دهوراً طويلة حتى ظفروا به أخيراً على يد ابن طولون؛ فلما ظفروا به — عزّ عليهم أن يزول ، لأن بهم شغفاً ونزوعاً بالغين إلى الحياة الاستقلالية من قديم. وليس أدل على ذلك من قيام المصريين نافرين من الحكم العباسي ، نازعين إلى حياة الاستقلال من جديد: إذ يقوم «محمد بن علي الخلنجي» سنة ٢٩٢ للهجرة — فيجمع حوله نفراً من المصريين في فلسطين ، ويدعو إلى الخطبة باسم الطولونيين ، ويغير على مصر ويحكمها باسم هؤلاء ثمانية أشهر — وقد بلغ من اغتباط المصريين بحركة ابن الخلنجي أن «تخلّصوا بالزعفران ، وخلّصوا وجه دابّته ، ووجوه دواب أصحابه فرحاً به .» (١)

حكم محمد بن الخلنجي مصر حكماً يعتمد على رغبة المصريين في العودة إلى عهد بني طولون ، ولكنه كان حكماً جائراً ، إذ كان في الواقع انتقاماً لبني طولون من أعدائهم ، وثأراً لما أنزل بهم وبأشياءهم «محمد بن سليمان العباسي» من عنت وتشريد .

وقضى على هذا الثائر الخليفة العباسي بجيش أرسله إلى مصر ، على رأسه «فاتك أبو شجاع» الذي أسر ابن الخلنجي وحمله إلى بغداد حيث نُكل به . وعادت مصر إلى حكم العباسيين يحكمها باسمهم «عيسى النوشري» حتى أتبع لها أن تهض من جديد على يد محمد بن طنجج الأخشيدي .

ويلبس الباحث في تاريخ الأسرة الطولونية مزايا « الدولة » كما تفهمها الأجيال الحديثة ، فقد حققت تلك الدولة قسطاً طيباً من السعادة المادية والأدبية للأفراد ، وأعلت مكانة مصريين أترابها من الأمم الإسلامية ، وأقامت العدل بين الناس ، وعُنيّت بشئون الصحة ، وأعانت الضعفاء ، ونظمت الأعمال العامة ، وساعدت على ترقية الفنون والعلوم . وليس من شك في أن ذلك الثراء الذي أصابته مصر في عصر ابن طولون ، والذي انعكس على مرافق الدولة جميعاً ، فكان من آثاره بناء العمار الضخمة والقناطر وتحسين أحوال الطبقة الزراعية وتشجيعها على امتلاك الأرض وتأمين الملكية — لم يكن مرجعه ابتزاز الأموال بغياً ، وإنما كان مرجعه تحسين الزراعة المصرية بحيث أصبحت تدرّ الأموال على مزاويلها . ولم يلجأ ابن طولون إلى ما لجأ إليه سلفه « ابن المدبر » من الضغط على الأهليين في جمع الضرائب ، وإنما فطن في ذلك إلى أنه يعامل رعية لها عليه من الحقوق بقدر ما عليها من الواجبات . وقد ساعده قطع الجزية على التعمير والانشاء وغير ذلك من وجوه المصلحة العامة ، ومبادلة الأهليين نفعاً بنفع — هؤلاء يخدمون مرافق الدولة ، وهو في مقابل ذلك يرعى شئونهم . وكان ذلك في ذاته مظهراً من مظاهر الاستقلال ، فلم تعد مصر تغلّ ليشبع الأجانب الحاكون ، وإنما غدت على يد هذا الحاكم المستنير تلتج فيجنى أبنائها ثمار ما تنتج ، وينعمون بعدد حرمان القرون ، بخير ما يهب غرين النيل وماؤه العذب الفرات .

ولا مرأ في أن دولة بني طولون كانت دولة وطنية مصرية ، أسف الناس على زوال ملكها ، وفاض أسفهم على ألسنة الشعراء شعراً يندب الملك الضائع .

الخلافة ، وارتفع مستوى الحياة المصرية وبرزت لمصر الاسلامية حضارة جديدة آخذة من الاسلام بنصيب ومن الحضارة المصرية في صورها المتأخرة بنصيب آخر .

وعز على الخلافة العباسية أن ترى في مصر أمة متميزة الصفات واضحة المعالم، عظيمة المنشآت ، فما أن سقطت دولة ابن طولون ودخل محمد بن سليمان القطائع ، حتى أمعن جند العباسيين في آثار بني طولون هدماً وتخريباً ، ولم يدع هؤلاء من «القطائع» بيتاً إلا سوتوه بالأرض، اللهم إلا المسجد الجامع . — وعلى أنقاض هذه الأطلال الدارسة بنيت «العسكر» وتبعت أهميتها السياسية والعمرانية أحداث السياسة ، فلم تلبث أن زالت تلك الأهمية لمجرد قيام حكم الفاطميين بهذه الديار .



ورجعت مصر إلى حكم الخلفاء العباسيين فترة من الزمن أشرفت على الثلاثين سنة ، كانت أمورها في أبنائها فوضى وانتقاضاً على حكم الخلفاء . ولا غرو ، فقد ألف المصريون على يد الطولونيين حياة الاستقلال ، وتمتعوا بمزايا الشخصية الخاصة . والحق أن الخلفاء عجزوا عن بسط سلطانهم عليها ، ووقعت الحكومة في أيدي الجند الأتراك ، وأرسلت الجيوش من بغداد لتخليص مصر من الثورات الداخلية ومن خطر الغزو الخارجي (١) . — ولكن هؤلاء الجند الذين وفدوا على مصر أملوا ارادتهم على الولاة ، وتسلطوا على مرافق البلاد ، فأصبح قائد الجيش صاحب المسكنة الأولى في مصر ، يليه صاحب الخراج من المادرائيين (وهم أسرة أشرفت طوال

(١) بسبب قيام الفاطميين في شمال أفريقيا

هذه المدة المضطربة على شئون الخراج) — وكانت لهم السيطرة على كل شيء، اللهم إلا السلطة العليا التي تركزت في تلك الحقبة في يد القواد الأتراك. وفي ظل هذه «الدكتاتورية» الحربية، قلّت أهمية الولاة، ومن دونهم من عمال الدولة المنتشرين في أنحاء البلاد.

ولم تلبث تلك الحال طويلاً -- إذ عاود البلاد شعور قوى بالاستقلال، ونزوع إلى الانفصال عن الخلافة التي ساءت أحوالها وبلغت من التدهور حدّاً انعدم فيه سلطان الخليفة أو كاد حين غلبه الجند الأتراك على أمره. وبدأت مصر مرة أخرى في تاريخ الشرق الأدنى حركة انفصال انتهت هذه المرة بتمزيق الدولة العباسية، — إذ حكم «الحمدانيون» أعلى الجزيرة والشام و«بنو بويه» فارس و«السامانيون» ما وراء النهر — في حين كان يحكم مصر حكماً مستقلاً على غرار الحكم الطولوني «ابن طغج الأخشيد». وقامت في الغرب الإسلامي دول نافست الخلافة العباسية منافسة شديدة، هي دولة عبدالرحمن الناصر في الأندلس والدولة الفاطمية في شمال أفريقيا.

وأبلغ «ابن طغج الأخشيد» مكانة مصر إلى شبه ما كانت عليه في حكم ابن طولون، فقاتل «ابن رائق» دفاعاً عن الشام، ثم هادنه واقتسم معه الحكم فيها، فحقق ذلك من جديد سيادة مصر الخارجية على تلك الجهات — وهي السيادة التي أعادها سلفه «أحمد بن طولون» إلى الوجود، بعد أجيال طويلة. — وما لبثت مصر بعد موت «ابن رائق» أن فرضت سيادتها على جميع الشام. وأضاف الخليفة راضياً إلى أملاك «الأخشيد» حكم مكة والمدينة وجعل مصر وراثية في أولاده. والخليفة في هذا المنح وذلك الرضا لا يمارس إلا سلطة رمزية ليس غير.

وتوطد استقلال مصر في عهد «الأخشيد» وتمتعت البلاد بمكانة سياسية سامية، نعمت فيها بخيرات سوريا وفلسطين فضلاً عن خيراتها الخاصة . ثم آل حكم البلاد إلى ابنه، فلم يكن لهما من السطوة ما كان لأبيهما، وحكم البلاد باسميهما «كافور الأخشيد» وفي عهده زادت رقعة الدولة مساحة حتى شارفت حدود الأناضول .

وما لبث أن تولى «كافور» حكم مصر بموافقة من الخليفة، ولم تكن موافقة الخليفة إلا «تبريكاً» للأمر الواقع، إذ كان اختيار كافور للحكم برأى «الأعيان والجند» . وبدأت مصر بهذه المبايعة تقليداً جديداً في تاريخها القومي، إذ أصبح اختيار الحاكم مرهوناً بإرادة المصريين دون سواهم — لا دخل في ذلك لسلطان الخليفة . وما أن توفي كافور حتى حسم رجال البلاط أمرهم، وانتخبوا من تلقاء أنفسهم والياً عليهم من بني الأخشيد، كما انتخبوا ولي عهد له منهم .

بهذا ينتهى العصر الذى أردناه بالبحث، وهو عصر تكون الأمة المصرية الاسلامية — ذلك العصر الذى بدأ بفتح العرب لمصر وانتهى بالدولة الاخشيدية، — فساكن كل ما سبق العهد الفاطمى من العصور، ليس — فى اعتقادنا — إلا تكونا واكتمالا لهذه القومية الجديدة التى ميزت فى مصر شعباً اسلامياً قوياً، لم يلبث أن تزعم العالم الاسلامى فى أخطر المواقف وأروعها — والواقع أن الفاطميين لم يختاروا مصر مكاناً يناوئون منه الخلافة العباسية، إلا لما أنسوه فيها من نزوع إلى الاستقلال، وكانت عيونهم بها — قبل أن يدركوها فاتحين، قد صورت لهم اتحاد قلوب المصريين على كراهية الخلافة العباسية والرغبة فى التحرر والانفصال عنها .

استطراد . . .

استقلال الفاطميين بالبلاد — سيادة مصر الخارجية على عهدهم —
أثرهم في التاريخ القومى — علو مكانة مصر على يد صلاح الدين — جهاد
الأيوبيين من أجل مصر والاسلام — زهاء عصر المماليك — حماية مصر
والثرات الاسلامى من عادية التتار والصليبيين — الغزو التركى وأثره —
عودة الروح القومية إلى الحياة — على بك الكبير — محمد على ينهض
بالبلاد — الاستقلال عن الدولة العثمانية — الأسرة المحمدية العلوية ومتابعة
النهوض وتدعيم الاستقلال .

وفيما يلى وصل سريع للحوادث :

١ — ولم يمض طويل زمن حتى تطلع الفاطميون فى شمال أفريقيا إلى
مصر ، يريدون أن يتخذوا منها موطناً لدعوتهم الشيعية ، قصد مناوأة الخلافة
العباسية السنّية والقضاء عليها ؛ وقد تخيروا مصر موطناً لهذه الدعوة لتوسط
مركزها و ثرائها وجنوجها الدائم إلى الاستقلال والانسلاخ عن جسم الخلافة
— فأن فتح المعز مصر (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) ، حتى تمّ انفصال مصر عن
الدولة العباسية ؛ ونافست «القاهرة» بغداد مقر الخلافة ، وازدهرت ، وعلت
سمعتها فى العالم الاسلامى — وكادت تفوق «مدينة المنصور» رقياً وحضارة .
عنيت هذه الدولة الفاطمية ، كما عنى غيرها من الأسرات الحاكمة بشئون
البلاد الداخلية ، وتابعت سياسة السلف من حيث السيادة الخارجية ، فقد
كان لها جنوب الشام وبلاد النوبة والحجاز والمغرب — وغدت مصر على
عهد الفاطميين قلباً للعالم الاسلامى ، واحتلت القاهرة مكانة تشبه مكانه بغداد
السياسية ، إذ ظلت مركزاً لسلطان واسع الأرجاء حيناً من الدهر ، على نحو
ما كانت بغداد ذاتها .

وضمن لمصر السيادة السياسية على الأقطار المجاورة أسطولها الحربى العظيم، وجيشها البرى الكبير .

وفى عهد هذه الدولة نمت العلاقات السياسية الخارجية ، وعقدت المعاهدات بين حكام مصر وملوك الروم ، والىها يرجع الفضل فى مكافحة الصليبيين فى حملتهم الأولى على سوريا ، وهى — وإن لم توفق فى اجلاء الصليبيين عن فلسطين والشام ، إلا أنها استطاعت أن تحتفظ باستقلال مصر فى وجه هؤلاء .

ولهذه الدولة شأن بالغ فى تاريخ مصر — فلا تزال آثارها الاجتماعية باقية فى الحفلات الدينية والمواسم والأعياد ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى ومولد الحسين ، وفتح الخليج ، والحج وغير ذلك .

وامتازت دولة الفاطميين بتسامح دينى كبير ساعد على زيادة الاندماج بين عناصر الأمة ، إذ لم يصبح للفارق الدينى على عهدها ذلك الاعتبار الذى كان له فى عصور مضت . وأدى ذلك بطبيعته إلى زيادة التعاون فى مرافق الحياة المختلفة ، وظهر أثره فى عالم الفنون بوجه خاص .

ومن الظواهر التى يلحظها الباحث فى تاريخ هذه الدولة ، تسامح عجيب مع العناصر المسيحية — اللهم إلا فى زمن الحاكم بأمر الله ، وهو من الشذوذ بما نعلم — ونفورٌ مستحكم الأواصر بين الشيعة والسنيين .

اشتد الخلاف بين الشيعة والسنيين وبعدت بينهما شقة الخلاف ، وظلت الحرب بينهما سجالا ، حتى استطاعت السنة أن تتغلب آخر الأمر على الشيعة ، حيث كتب لها النجاح والتفوق على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب

٢ — وحكم صلاح الدين هذه الديار أول الأمر باسم «نور الدين محمود بن زنكى» الأتابكى (منذ ٥٦٧هـ) ، ولم يلبث أن خلع عن نفسه سلطان سيده نور الدين ،

وأخذ يوجه الجيوش إلى السودان وشمال أفريقيا وبلاد العرب واليمن ؛
وفي الأخيرة نجح أخوه في تأسيس دولة حكمت باليمن زمناً يقرب من
نصف القرن .

وبموت نور الدين ، تطلع صلاح الدين إلى حكم الممالك الإسلامية جميعاً ،
وتأسيس دولة واحدة كبرى — يقوى بها على مناهضة الصليبيين الذين
ثقلت وطأتهم على الشرق الأدنى ، وهددوا الأملاك الإسلامية فيه بالزوال .
واتهز صلاح الدين فرصة موت « نور الدين محمود » واستولى على
دمشق ، ودان له أمراء المسلمين الذين اعترفوا طواعية بسيادة مصر على
جميع الشام حتى تخوم العراق .

واتسعت رقعة الدولة المصرية في عهده حتى انتظمت شمال العراق
وبلاد الكرد — ولم تكن سيادة مصر قد مست هذه الأنحاء في عهد من
عهودها السابقة . ويسجل التاريخ لصلاح الدين الأيوبي مفخرة الانتصار
على الصليبيين بعد حروب دامت بينه وبينهم خمس سنين متوالية ، انتهت
بانتزاع الشام من أيديهم واعادته إلى حظيرة الاسلام واخضاعه للسيادة
المصرية من جديد .

ويذكر التاريخ للملك الكامل والملك الصالح من ملوك « بنى أيوب » جهادهم
في سبيل انقاذ الشام ومصر من خطر الصليبيين .

وتاريخ الأيوبيين على ما هو معلوم سلسلة كفاح ونضال شديدين من
أجل نصرة الاسلام والمسلمين ؛ علت في أيامهم مكانة مصر في نظر العالم
الاسلامى — إذ تزعمت مصر حركة الدفاع عن الاسلام ، ونجح حكامها
في ذلك إلى أقصى حدود النجاح ، فلا غرابة أن سجل تاريخ الاستقلال
المصرى لهؤلاء الأبطال صفحات من المجد باقيات على الزمن .

وكادت القومية المصرية في هذا العهد تتلاشى في الفكرة الإسلامية العامة ، ولكن ذلك لم يكن له أى تأثير على الحقيقة الواقعة وهى احتفاظ الأيوبيين بسلامة البلاد من الخطر الذى هدها ، وفرض سيادتها على ما جاورها من الأقطار . وحق للأيوبيين أن يفاخروا الأجيال بمقدرتهم على تحقيق الغرضين معاً رداً من الزمن .

٣ — وانقضت دولة الأيوبيين بما سجلت على الزمن من مفاخر تزهو بها القومية القومية المصرية الإسلامية أشد الزهو وأصدق ، وآل أمر هذه البلاد إلى حكم المماليك البحرية والمماليك البرجية من بعدهم ، فنالت مصر على أيدى هؤلاء ، ولو أنهم كانوا من الأجانب ، غاية ما كانت تطمح اليه علواً وسؤداً ، فقد ارتقت في عهدهما الصناعة وتحركت التجارة بما لم يسبق له مثيل ، وتقدمت العلوم ، وجادت الفنون ، واتسعت رقعة الملك ، وانبسط سلطان البلاد على كثير مما يليها كالشام وبلاد العرب والجزيرة والسودان ، وأبرمت المعاهدات التجارية مع البندقية وفلورنسا ، ترغيباً في وفود الأجانب بمتاجرهم على مصر قصد انماء الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، مما كان يراد من ورائه امتلاء خزائن « الجمارك » المصرية « برسوم » السلع .

وحقق المماليك لهذه البلاد رخاءً مادياً عظيماً ساعدهم على التعمير والاصلاح . ومن آثار التقدم للمادى الذى أحرزته البلاد على عهد المماليك ما نشاهده باقياً من عصرهم من العمارات الضخمة بين مسجد وبيمارستان وخانقاه ودار علم وغير ذلك ، مما حفلت به « قاهرة المماليك » ،

من جليل المباني وعظيم العماثر. ذلك فضلا عن تقدم لحق كل نواحي الفنون. وفي هذا العهد نضجت الحضارة الاسلامية في شتى نواحيها، وآل إلى مصر على أثر سقوط بغداد في أيدي التتار تراثٌ عظيم القيمة جاء اليها بطرق هجرة العلماء تحت ضغط الغزو التتري، زاد الثروة العلمية فيها زيادة ذات بال. وكان لهذا الحادث من الآثار مثلما كان لهجرة العلماء من القسطنطينية إلى أنحاء أوروبا على أثر غزو السلطان «محمد الفاتح» لها عام ١٤٥٣ م.

وصمدت مصر المملوكية لأحداث السياسة والحرب في وقت اضطرب فيه جبل السلام بسبب غزوات التتار والصليبيين — وفي وسط ذلك المعترك العنيف وقعت مصر وبقعتها التاريخية، مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب، تصد غارات التتار وتدفع عادية الصليبيين، وتحول بين الغرب الاسلامي وبين هجمات التتار عليه، وتخلصه بذلك من خراب مؤكد.

وشهد هذا العصر فيما شهد نضوجاً قومياً وفكرياً وفنياً، هو ثمرة من ثمار تلك الطمأنينة التي تمتعت بها مصر في حكم المماليك، ولا يكاد يعرف تاريخ العمارة الاسلامية أروع من تلك الآثار التي خلفتها لنا هذه الدولة المجيدة شاهدة على رخاء ماضي منقطع النظر.

وأنشأ المماليك الأساطيل البحرية، وجاسوا بها خلال البحار المجاورة، وناووا القوى البحرية الأوروبية، وبلغت سطوة مصر مبلغاً عظيماً، وأدرك سلطانها الخارجى ما وراء سوريا وبلاد العرب — وفي عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨/٦٧٦ هـ)، صارت للقاهرة مكانة ممتازة بسبب ايواء الظاهر للخليفة العباسي الفار من وجه التتار، واسكانه القلعة، وتحقيق بذلك حلم

كبير كان يحلم به ابن طولون من قبل. وعقدت على عهد «الظاهر» المعاهدات مع صقلية وبيزنطة واسبانيا، ونمت العلاقات بين مصر وتلك الأقطار، حتى لقد اقتبست الفنون عامة والفنون المعمارية خاصة بعض أصولها من فنون تلك البلاد الصديقة.

وجاءت أسرة قلاوون الشهيرة بما عرف عنها من طيب الأثر في التاريخ المصرى الاسلامى، فتابعت سياسة القوة فى الخارج والداخل، وعقدت بدورها معاهدات الود والمنفعة التجارية المتبادلة مع دول أوروبا.

٤ — واعتدت البلاد فى أواخر عصر المماليك فترة ضعف أطمعت فيها الأتراك العثمانيين الذين تآخمت أملاكهم فى آسيا الصغرى أملاك مصر فى الشام، وجرت بين الفريقين موقعة مرج دابق (١٥١٧ م) وفيها أبلى الجيش المصرى الباسل بلاءً حسناً. ووقعت مصر فى يد العثمانيين فترة من الزمن ليست بالقصيرة، وتبعت الدولة العثمانية تبعية سياسية. على أن هذه التبعية ما لبثت أن صارت مع الزمن اسمية، إذ استرجع بماليك العهد التركى نفوذهم تدريجاً، وقل نفوذ الوالى التركى وسقطت هيئته، واستأثر المماليك منه بأهم علامئ سلطانه، ونعنى بها قيادة الجيوش وجباية الضرائب. وانتهى هذا التزايد فى السلطان إلى تولية على بك الكبير (شيخاً للبلد) — وتاريخ على بك الكبير يكوّن صفحة من صفحات المجد المصرى، فقد أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية (عام ١٧٦٨ م) وأضاف إلى رقعتها جزءاً من بلاد العرب، وحاول الاستيلاء على الشام، ولولا فعل الخيانة لتبدل وجه التاريخ على يديه بعض التبديل.

٥ - وفتح الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ م ، ولكن المصريين قاوموا طول الوقت حكم هؤلاء الأجانب. وتجلت رغبتهم الكامنة في الاستقلال ورفع نير الذل عن كواهلهم في ثورة أكتوبر ١٧٩٨ على الحكم الفرنسي جملة . وتأزرت قوى المماليك مع القوى الحربية التركية والانجليزية على الخلاص من الحكم الفرنسي : وبزواله عادت البلاد إلى حكم العثمانيين بالاسم وحكم «بكوات» المماليك بالفعل .



٦ - وما أن ولي محمد علي باشا بحسن سياسته أمر هذه البلاد ، حتى عمل جاهداً على إنهاضها وتخليصها من مفاصد الزمن ، وتوجيهها وجهة قوميتة جديدة لا يكون السلطان فيها للمماليك الذين فسدت على أيدي أواخرهم أحوال البلاد - وساعد على فسادها وانحطاطها ذلك النظام الذي كان قد وضعه السلطان سليم الأول لحكم البلاد .

وتمكن هذا البطل العظيم من اضعاف سلطة الوالى العثمانى ، وتخفيض شوكة المماليك فى آن واحد . وقرب من نفوس المصريين «فبايعوه» والياً على مصر ، ولم يسع تركيا الا التسليم بالأمر الواقع ، فأجابت هذا الشعب التائق إلى الاستقلال إلى طلبته ، وقلدت «محمداً علياً» ولاية هذه الديار عام ١٨٠٥ م . وبُعثت مصر على يدى هذا العاهل الكبير بعثاً جديداً ، فأُبحت مفاصد قرون ثلاثة أو ما يقرب ، فى سنوات قلائل من حكمه - فقد نظمت إدارة البلاد وسنت القوانين واللوائح ، وأصلحت الاراضى الزراعية ، وأقيمت القناطر ، وشُققت الترع ، ونظمت جباية الضرائب ، وافتتحت المدارس وأوفدت البعثات العلمية إلى أوروبا ، وشيدت المصانع المختلفة لسد حاجات

الجيش (وكان الجيش محور الإصلاح بوجه عام)، وأنشئت الجيوش على أحدث النظم الأوروبية، وفتّح السودان، وبُنِيَ الأسطول المصري وخاصّة غمار المعارك البحرية.

وتاقت نفس البطل بعد ذلك إلى فرض سيادته الخارجية على الأقطار المجاورة من أملاك السلطان. وشجّرت بينه وبين السلطان العثماني حروب كان على أثرها بدء تحلل مصر من التبعية التركية. وحصلت مصر على «فرمانات» أثبتت حقها في الاستقلال، وأعطتها السيادة على السودان.

٧ — وتأيد في عهد المغفور له الخديو اسماعيل، استقلال مصر عن تركيا، وجعلت مصر وراثية في أكبر أبناء حاكمها، بعد أن كان حكمها وراثياً في أكبر أبناء الأسرة الحاكمة سنّاً، وأطلقت يدها في شؤون التعمير والإصلاح، وعقد المعاهدات وتحديث الجيوش، وإنشاء السفن والأساطيل دون استئذان السلطان. وأصبحت مصر بذلك حرة تمام الحرية في تدبير شؤونها الداخلية والخارجية جميعاً — وزادت رقعة أملاك مصر في أفريقية، فملكّت مصوع وسواكن وهرر، وبلغت حدود المملكة المصرية من الجنوب خط الاستواء، وساهمت البلاد بنصيب واضح في مكافحة الرقيق، وسأيرت الرقّ الأوروبي، حتى حقّت عليها كلمة «الخديو اسماعيل، الخالدة مصر قطعة من أوروبا».

٨ — وشابت هذه النهضة المصرية التي نهضتها البلاد على يد الأسرة المحمدية العلوية بعض الشوائب — ولكن الوطنية المصرية المجاهدة المصاهرة تغلبت

آخر الأمر، وتمكنت في مدى نصف القرن المنسلخ من استعادة حقوق هذه البلاد بجهد طويل شاق، انتهى بالمعاهدة التي عقدت بين مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦



وهكذا نجد التاريخ المصرى سلسلة طويلة من الجهاد في سبيل الوطن والقومية، كتب لمصر فيه النصر في كل مرحلة من مراحل ذلك الجهاد، وتوجّهت جهودها في كل مرة بالاستقلال عن حكم الأجنبي — أفلا يحق لمصر الفخر بهذه الوطنية الرائعة التي لم تُخمد من سوزتها القرون، ولم يثنها عن ادراك الغاية اضطهاداً أو عسف، ولم يعترها في جلادها وجهادها وهن — ولم يصبها كلال !





المظهر الفني — ١

نقطة الفن

اتفاق مؤرخي الفنون على أنه كان للقبط فن قوى يستمد أصوله من الفن القديم — اكتمال هذا الفن في القرن الخامس الميلادي — المسيحية تصبغة بصبغة خاصة — تزيل منه آثار الوثنية — الفنون التي أدرجها العرب مزدهرة بهذه البلاد — الفن الاسكندري — العرب ينتفعون بدراسة الأمم المزدورة في ميدان الفن — رسالة العرب في الفن — العرب يستخدمون مهارة القبط في ميدان الفنون — النقطة من الطراز القبطي إلى الطراز الاسلامي

أدرك العرب في مصر فنا موروثة عن القرون التي سبقت الفتح الاسلامي، اصطلاح الناس على تسميته بالفن القبطي، ويفسره شتريجوفسكى (١) بأنه فن مختلط الأصول، أبدعته أيد حذقت تقاليد المصريين القدماء، أغريق الصبغة، تتجلى في زخارفه تفاصيل سورية وهلينية — ولا يميل شتريجوفسكى إلى الاعتقاد بوجود عناصر مسيحية في هذا الفن، في حين يرى فيه « ماسپرو » لونا جديداً من ألوان الفن المصري، وأثراً من آثار الديانة المسيحية، وشكلاً محلياً من أشكال الفن البيزنطي، نما في مصر واتخذ فيها طابعه الخاص.

ويذهب جاييه (٢) إلى أن هذا الفن إنما هو من انتاج المسيحيين، ويقدر

Strzygowski, Cairo Mus. Cat., Koptische Kunst, p. XVI (١)

Gayet, L'Art Copte (٢) جاييه — الفن القبطي ص ١

له حياة تمتد من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادى ؛ ويحدد « فالدمير » بدايته باستقرار المسيحية فى مصر حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى . ونحن نلاحظ فى آراء شتريجوفسكى وماسيرو وجايبه وفالدمير اتفاقاً على أن هذا الفن القبطى فن متوارث تميز فيه العين الفاحصة عناصر مصرية تشوبها مؤثرات خارجية هيلينية سورية وبيزنطية — وتخلع عليها المسيحية المصرية روحاً خاصة .

وهذا الفن القبطى يحىء مباشرة بعد الفن المعروف فى تاريخ الفنون المصرية بالفن « الاغريقى الرومانى » — وهو متحول عنه تحولا بطيئاً لم تنعدم فيه مميزات الفن الاصلى . ولقد اثرت المسيحية فى هذا الفن تأثيرها المحتم ، فمحت منه صور الآلهة الوثنية ، وأحلت محلها صور القديسين ومناظر من الانجيل ، وغدا الفن الجديد بهذا مسيحى المظهر ، وأن ظل جوهره يحتفظ بتقاليد الفن القديم ويرعى اصوله .

ونميز فى هذا الفن القبطى ثلاثة عناصر واضحة: أولها الزخرفة الاغريقية الرومانية ، وثانيها مؤثرات من غرب آسيا من فنون ايران وسوريا ، وثالثها ، وهو أكثرها وضوحاً وأقواها ظهوراً ، العنصر الدينى المسيحى الذى استمد موضوعاته من الكتاب المقدس (١) .

ودرج الفن القبطى فى سبيل النهوض حتى قدر له الاكتمال فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، واعتوره الضعف فى القرن السادس وأدرك

(١) كندريك — دليل المنسوجات المستخرجة من المقابر المصرية — العصر القبطى

A. F. Kendrick, Cat. of Textiles from Burying-Grounds in Egypt, III, Coptic Period.

العرب منه صورة شاحبة عند فتحهم لهذه البلاد، هي الصلة الوثيقة بين الفن المصرى القديم — والفن المصرى الإسلامى .

ومن المعروف أنه تم فى منتصف القرن الخامس الميلادى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الاغريقية، وتبع ذلك فى الوقت نفسه انفصال فى كل ناحية من نواحي الحياة تقريبا، وتجلت لهذا الانفصال علائم قوية فى الأدب والفن بوجه خاص — وتلاشت أو كادت، تلك الروابط التى كانت تربط الفن المصرى بالفن البيزنطى، وتحرر المصريون إجمالا من موضوعات الفنون الوثنية، وانعدمت فى الفن الجديد تلك المشاهد الوثنية المألوفة فى فنون مصر القديمة، وفنون العصرين البطليموسى والرومانى؛ وقلت رغبتهم فى تصوير الانسان العادى أو تجسيمه، ولم يستسيغوا ذلك الا فى تمثيل السيد المسيح، والعذراء، والقديسين، وكانت الكثرة من انتابهم فى التصوير لا فى النحت، حتى لقد فقد المصريون بمرور الزمن مقدرتهم القديمة فى هذا المضمار^(١).

ولهذا السبب نجد التصوير من الفنون التى ادركها العرب فى مصر فى منتصف القرن السابع الميلادى مزدهرة، ولا سيما فى الاسكندرية. ومن أشهر أنواع التصوير ذلك النوع الدقيق (Miniature) الذى كانت تحلى به المخطوطات، فضلا عن الصور الدينية التى كانت الكنائس عامرة بها، تمثل السيد المسيح والعذراء والقديسين .

واشتهر قبط مصر باستخدام الزخارف الهندسية والنباتية التى ورثها عنهم

(١) الدكتور زكى محمد حسن — بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية (من مطبوعات

جمعية بحى الفن القبطى — ١٩٣٧)

العرب واغرموا بها غراما لاحد له ، وكونت في فنونهم الجزء الرئيسى . وكانت الاسكندرية عامرة بالمباني الضخمة بها من الحصون والاسوار والكنايس والطرق ذات العمد ما يشهد ببقاء فن البناء مزدهرا ، وتبعث هذا الفن المعمارى فنون اخرى فرعية استخدمت في تحميل الجدران وغيرها من السطوح . ومن هذه الفنون الفرعية صناعة الفسيفساء الرخامية ذات الالوان ، والفسيفساء الزجاجية التى يذكرها « أبو صالح الارمنى » ، وكانت تتكون منها الصور المختلفة . ومن ذلك أيضا افاريز الممر لتغطية الجدران ، وتكسية الأرض بالرخام . وقد احتفظ القبط زمنا طويلا في حكم العرب بدرايتهم في فنون البناء وصناعة الفسيفساء . وكان يطلق على هذه الفروع

الفنية جميعا اسم الفن الاسكندرى *Opus Alexandrinum*

وعرفت مصر فيما عدا ذلك من الفنون صناعة التماثيل ، غير أن هذه الصناعة ادرکها الفتح العربى مضمحلة ، وكذلك صناعة نحت العاج التى كانت قد بلغت غاية کمالها في ذلك الوقت (١) ، وكذلك صناعة النسيج وتطعيم المعادن — وكلها صناعات ترجع الى العصر المصرى القديم ، فلقد عرف عن الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة الفرعونيتين تفوق بهر العالم في صناعة الحلى وفي الفنون التطبيقية اطلاقا . ظهر لذلك نما عشر المنقبون عليه من حلى هاتين الاسرتين — ولا سيما حلى عصر الملك « توت عنخ آمين » ،

بقيت هذه الصناعات الصغرى قائمة الى ما بعد الفتح العربى حين عاودتها الحياة في القرون الوسطى الاسلامية في مصر ، وتحتفظ المتاحف بنماذج قيمة من الحلى الباقية من هذا العصر .

وتفوقت مصر في العصر الفرعوني وفي العصور التي تلتها حتى العصر العربي، في صناعة الورق من البردى وصناعة الخزف والزجاج. وبما يؤيد شهرة مصر بهذه الصناعة ما كان يفرضه الامبراطور « أغسطس » من جزية الزجاج العينية التي كانت ترسل عادة مع الجزية السنوية الى عاصمة الامبراطورية — ويحتوى المتحف الاغريق الرومانى بالاسكندرية عددا من الامثلة البديعة الدالة على رقى هذه الصناعة. يقول « بطر » في كتابه فتح العرب لمصر: « لا خلاف فى أن هذه الصناعات اسلمها القبط بعضهم لبعض جيلا بعد جيل حتى العصور الوسطى ؛ وكان آخر ما أخرجته تلك الصناعة المصاييح المموهة بالمينا التي كانت تزين الكنائس والمساجد، وهى اليوم مفخرة المتاحف ؛ على أن صناعة هذه المشكاوات المموهة بالمينا محل شك ماتزال بين علماء الآثار الاسلامية، ومن الصعب ان نجزم انها من صناعة مصر دون سوريا، فهناك من الادلة على امكان صناعتها فى سوريا ما يجعلنا فى حيرة من أمرها^(١). وعلى الرغم من ذلك فالمعروف أن الفسطاط كانت فى العصر الاسلامى مركزا ممتازا للصناعة الزجاج والخزف، ولا يصعب أن نعتقد أن الايدى التي عملت بالفسطاط فى العصر العربى كانت أيد قبطية حذقت تقاليد هذه الصناعة من قديم، وخدمت العرب بمهارتها فى هذا المضمار، كما خدمتهم فى الميادين الاخرى. وقد شاد « ناصرى خسرو » الرحالة الفارسى بوجود زجاج الفسطاط ورقته وصفاته حوالى عام ١٠٤٧ للميلاد.

وكانت للمنسوجات تجارة رائجة منذ كانت صناعتها زاهرة بمدن الدلتا

(١) بطر — فتح العرب لمصر « التعمير » ص ٩٦.

والصعيد، لاسيما في اخميم والانطونين والفيوم، وكانت بهما في العصر الروماني مراكز هامة للنسيج . وتحفل دور الآثار بمخلفات هذا العصر . ويحتوى متحف «فكتوريا والبرت» في سوٲ كنز نجتون في لندن اكبر مجموعة من انتاج بانوبوليس (اخميم) — وهذه المنسوجات انماط مختلفة ، فبعضها يمت الى الانماط المصرية القديمة بصلة وثيقة ، وبعضها يحمل رسوما مسيحية ، والبعض زخارف فارسية . وقد كشفت بسقارة منسوجات عليها زخارف قديمة تشبه زخارف المنسوجات التى كشفت من العصرين الروماني والقبطي — وهذا كبير الدلالة على أن تقاليد هذه الصناعة بقيت متوارثة ومرعية حتى العصر العربي .

يقول « بطر » انه كلما امعنا في درس تاريخ مصر ، سواء منه ما كان في العصر البيزنطي أو العصر العربي ، زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل في بقاء آثار الصناعة حية ماثلة في البلاد — وذلك في كل شعبة من شعبها : في صناعة الذهب وتطعيم المعادن ، والزخرفة بالمينا ، وصناعة الزجاج وغير ذلك من صناعات الانشاء والتجميل (١) .

وكانت بالبلاد صناعات اخرى كالنجارة يحذقها الاقباط ولا سيما نجارة السفن والادوات الزراعية . واشتهرت الاسكندرية بصناعة السفن من زمن بعيد ، وظلت لها شهرتها حتى عصر معاوية الذى أمر ببناء السفن الحربية في ثغر الاسكندرية ، ولم يكن بالمدينة حينذاك من الصناع البيزنطيين من كان يمكن أن يسند اليهم مثل هذا العمل — فقد رحل هؤلاء عن الاسكندرية قبل ذلك بزمن .

وتقوم لدينا الشواهد العديدة على أن الفن المصرى الذى أدركه العرب بهذه البلاد تحول عن مصريته المسيحية الى القومية الجديدة، وأصبح مظهرا من مظاهرها ، فقد ابقى العرب على القبط فى ميدان الفنون ، واستغلوا مهارتهم الموروثة فى هذا السبيل — وذلك كان شأنهم بالنسبة للفنون فى كل مكان نزلوا به فاتحين .

والحق أنه لا تعوزنا الادلة على أن الصناعات التى ازدهرت بمصر فى العصر العربى ليست إلا استمرارا لما كان معروفا من الصناعات فى العصر السابق على الاسلام — فانا نكاد نرى صناعة النسيج لم تفارق مراكزها الاولى التى كانت بها قبل فتح العرب للبلاد ، وكذلك صناعة السفن والخزف والزجاج والفسيفساء والورق لم تكد تتحول عن مراكزها الاصلية (١) — وتعليل ذلك أن العرب لم يكن من دأبهم تجريد أهل البلاد المفتوحة من مزاياهم فى الادارة أو الفن ، استغلالا لمواهب هؤلاء فى الحكم وفى عالم الفنون على السواء . وقد ساعد ذلك العرب على التفرغ لأمور الدين ، فقد كفوا به أمور الدنيا .

اجتاز الفن القبطى فى مصر مرحلة انتقال من طرازة الخاص الى الطراز الاسلامى فى خلال قرنين من الزمان اعقبا الفتح . وكانت للفن المصرى مرحلة تحول تشبه مرحلة التحول التى درج فيها الشعب المصرى فى خلال تلك المدة ثم انتهت بنضوجه السياسى — فى خلال قرنين من الزمان يزيدان قليلا ، تطور الفن فى وادى النيل ، وأصبحت له شخصية مستقلة وكيان جديد — حدث ذلك فى الوقت الذى تم فيه استقلال مصر عن الخلافة العباسية ، فلم يكن

حدوثه مصادقة ، وإنما كان نضوجا في ناحية الفن ، كنضوح الأمة المصرية الجديدة في ناحية الاجتماع والسياسة .

يقول مؤلف كتاب الفن الاسلامى في مصر : « ليس غريبا أن تظل مصر قبل الطولونيين تابعة للخلافة العباسية في الفن كما كانت تتبعها في السياسة ، وليس غريبا أن تكون نشأة الفن الاسلامى في مصر وحياته فيها قبل العصر الطولونى يحيط بهما شيء من الغموض »

— والفن الطولونى أول مرحلة واضحة جليلة في تاريخ الفن الاسلامى بأرض الفراغة . وسيرى القراء أنه لم يكن مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية في ذلك العهد ، ولكنه على تبعيته . وأشتقاقه منه — كان منافسا له ، — ولا غرو ، فقد استطاع بنو طولون أن يتخذوا لأنفسهم بلاطا كبلاط الخليفة في سامرا وبغداد ان لم يققه ابهة وعظمة »

على أن ذلك الغموض الذى يشير اليه مؤلف « الفن الاسلامى في مصر » سببه على الاغلب عدم عثورنا على ما يمكن أن يلقى ضوءاً كافياً على فنون القرنين الاول والثانى الهجريين في هذه البلاد ، إذ المعروف أن القبط عاودتهم مهارتهم الموروثة في الفنون في العصرين الطولونى والفاطمى — ومكن التسامح الدينى الفاطمى لهم من أن يلعبوا دورا هاما على مسرح الفن من جديد — حتى لقد يصح أن يعتبر عصر القواطم من هذه الناحية استثنافا للفن القديم الذى حذقه الاقباط ، برغم ما يبدو في الفنون الفاطمية من التأثيرات الايرانية والسورية والبربرية — وانه على الرغم من ذلك الغموض الذى يعتور الحياة الفنية في القرنين الاول والثانى الهجريين في مصر ، يتعذر على العقل أن يتصور أنه لم تكن لهذه الفترة من الزمن فنونها — إذ أنه اذا

ساغ أن تتصور ذلك — فأين اذن ذهبت مهارة الصناع المصريين الموروثة؟
— ومن قام على أمر الصناعة حين كان هم العرب الفاتحين الانصراف الى
نشر العقيدة والتكين لها؟

على أنه بما يخالف طبيعة العرب كل المخالفة ، أن يكونوا قد اغفلوا مهارة أهل
البلاد في ناحية الفنون ، وهم الذين يذكرهم المؤرخ الاجتماعي « ابن خلدون »
بالقصور في المباني والصنائع والاستغناء بما وجدوا من مباني غيرهم
وفنونهم عن احتراف الصناعة وخدمتها — فأذا كان ذلك كذلك ، فكيف
يتسنى لشعب أن يعيش من غير صناعة ومن غير فن زهاء القرنين ؟
والحقيقة التي يوحى بها العقل ، ويحتملها المنطق السليم ، هي أن العرب لا بد أن
يكونوا قد استخدموا مهارة المصريين الموروثة في صناعة الاقمشة والزجاج
والخزف والورق ، وفي صناعة البناء وزخرفته ، وتزيين الدور بالفسيفساء ،
وتغشية الجدران والسقوف بالاختشاب المزخرفة ، وفي صناعة الاثاث للدور
والمساجد خلال القرنين الأولين من الفتح — غير انه يلاحظ أن الصبغة
المسيحية التي كانت تسم فنون القبط اخذت في التلاشي تدريجاً ، وبدأ يحل
محلها طراز قتي جديد ، ليس شيئاً مبتدعاً في ذاته ، وانما هو لون جديد من
الوان الفن المحلي ، دمغه الاسلام بخاتمه — وكان ذلك « الخاتم الرسمي » على
حد تعبير الاستاذ « جاستون فييت » (١) ، هو ادخال الحروف العربية
الكوفية كعنصر رئيسي من عناصر الزخرفة — ولعل ذلك كان له في بداية
الامر معنى ديني — هو تعظيم الله بحمده وشكروه وترديد نعمائه على منتجات الفنون.

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت «النقطة» من الطراز القبطى الى الطراز
الاسلامى بطيئة غير محسنة — فأنت لا تكاد تدرك حقيقة القطعة الفنية ، أهى
قبطية سابقة على الفتح العربى ، أم اسلامية مبكرة ، الا بما يدمغها من الكتابات
العربية الكوفية .

وظهر ذلك « الخاتم » ، على المنسوجات ذات الزخارف التقليدية القبطية
والصناعة الخشنة المنسوبة الى الفيوم واخميم ، وكذلك ظهر على الاخشاب
المزخرفة ذات المسحة البيزنطية الساسانية ، ومنها نماذج بدار الآثار العربية ، كما
ظهر على القطع القليلة المنسوبة الى العصر الطولونى من المنسوجات ، وهى
قطع قريبة الشبه — من حيث مادة صنعها وزخارفها وخشونها — بالنسيج
القبطى ، وهو كذلك يلاحظ على القطع الخزفية المكتشفة فى الفسطاط من
العصر الطولونى .

فن مصرى اسلامى

اضطلاع المصريين بمسائل الفنون — صناعات النسيج
والخشب والزجاج والحزف والتصوير صناعات مصرية قديمة
— فن جديد مصرى الأصول اسلامى الطابع — منافسة
الخلفاء تدعو إلى بعض الاقتباس من فنون العراق — الاقتباس
عارض ينتهى — وهو فى العارة دون غيرها — العلاقة القوية
بين فنون العصر الطولونى وفنون العصر القبطى — وفرة الأمثلة
على ذلك .



هؤلاء المصريون — الذين دلتنا المصادر التاريخية، ومن بينها «بردية أفروديت» (١)،
على أنهم اشتركوا فى تشييد العمارات الاسلامية الكبرى فى فلسطين وسوريا
وبلاد العرب، وزخرفتها بالفسيفساء والجص، والذين ساهموا فى بناء
«قصر المشتى» بشرق الأردن، والذين منحهم الاسلام بعد وفوده على
بلادهم تسامحاً طيباً، تمكنوا فى ظلاله من استئناف جهودهم الصناعية والفنية
فى معاقلم الخاصة فى الصعيد والدلتا، والذين كانوا عوناً للطبقة الحاكمة
على تسيير دفة الأمور فى البلاد بسبب درايتهم القديمة بإدارتها وخراجها
— ليس من السهل أن تتصور أنهم نُحُوا عن ميدان الفنون والصناعات
وأخرجوا منه اخراجاً، مجرد أن ابن طولون استجلب إلى هذه البلاد فناً

(١) بردية «أفروديت» التى كتبها «قرة بن شريك» إلى عامله الرومى على منطقة «أفروديت» فى
فى صعيد مصر يأمره فيها بجمع العمال والمؤن لارسالها إلى فلسطين للمعاونة فى بناء المسجد الأقصى .

عراقياً من «سامراء». والحق أن ما استجلبه ابن طولون من سامراء من فنون ، لم يتضح أثره إلا في العمارة وزخرفة المباني بالجرص والخشب ، أما ما عدا ذلك من الفنون فقد ظل المصريون يحتفظون فيه بما كان لهم من سابق المعرفة والدراية . ولم يستطع العرب الاستغناء عن خدمات المصريين في الفنون إلا حوالى القرن الرابع الهجرى بعد أن أفادوا الكثير من درايتهم ، وتلقنوا عنهم أسرار الصناعة والفنون — ففي ميدان النسيج كان تطور الصناعة منتظماً ليس فيه من الطفرة أو الانقلاب ما يبعث على الاعتقاد بتغير الأساليب القديمة ، وكل ما لحق هذه الصناعة إنما كان في زخارف المنسوجات ليس غير ، إذ هجرت رسوم الحيوان والآدميين — وهى الرسوم التى كانت مألوفة فى المنسوجات القبطية ، واستبدلت بزخارف أساسها وحدات هندسية وكتابتية ولعل السبب فى ذلك راجع إلى كراهية الاسلام تصوير الكائنات الحية .

وكانت مراكز النسيج تعرف « بالطراز » ، وهو إما طراز العامة ، وكان ينتج لجمهور المستهلكين ، أو طراز الخاصة ، وكان انتاجه للخليفة ورجال بلاطه وكبار رجال الدولة ممن يريد الخليفة أن يخلع عليهم الخلع فى المناسبات الخاصة . وأغلب الظن أن «نظام الطراز» بقية من نظام الاحتكار الرومانى لصناعة النسيج ، بل ربما كان نظاماً متخلفاً عن مصر الفرعونية التى عرف فيها نوع من الاحتكار فى هذه الصناعة ، حيث كان يتبع كل معبد من المعابد مصنع نسيج ، تدر فوائده الخير على الحكومة والكهنة فى آن واحد . (١)

وهناك قطعة باسم «الأمين» بن هرون الرشيد ، صنعت بطراز العامة فى مصر عُثر عليها فى القسطاط ، وقوام زخرفتها شريط عريض

ذو جامات، يذكرنا بأشرطة المنسوجات القبطية وجاماتها (١)، وقطعة أخرى أسبق عهدا مشهورة باسم عمامة « سمويل بن موسى » مؤرخة ٨٨ للهجرة، قوام زخرفتها شريط ذو « جامات »، بها زخارف حيوانية لا تختلف كثيراً عما يشاهد في المنسوجات القبطية من زخارف، وقطعة ثالثة من نسيج الكتان الخشن تنسب إلى العصر الطولوني، تحمل كتابات كوفية كبيرة الحروف، بها زخارف سامرية واضحة (٢)، صناعتها مصرية صريحة، — وهكذا تبدو على معظم قطع النسيج الطولونية المسحة القبطية التقليدية.

ويورد الدكتور زكي حسن في كتابه « الفن الاسلامي في مصر » ما يؤيد الرأي الذي نذهب اليه، فيقول: « وكانت في صناعة النسيج بمصر مرحلة انتقال بين العصر القبطي البحت والعصر الاسلامي البحت، ترى فيها زخارف من طيور متقابلة وجامات بيضية الشكل، فيها حيوانات صغيرة أو طيور (٣)؛ وفي العصر الطولوني كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسيج... وفي دار الآثار العربية قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة.. »



وليس هذه المسحة الطولونية في النسيج إلا المسحة القبطية بعينها، أضيف اليها الطابع الاسلامي الذي دمج كل منتجات الفنون تقريباً، وهو

(١) هذه القطعة كثيرة الشبه بمنتجات أخميم (القبطية) من القرنين السابع والثامن الميلاديين - مجموعة متحف فيكتوريا وألبرت.

(٢) الأوتخان رقم ٢١ و٢٣ من كتاب الفن الاسلامي في مصر.

(٣) أنظر دليل المتحف القبطي لمقرن سميك باشا — الجزء الأول صفحة ١١٩ — وكتاب الفن الاسلامي في مصر، صفحة ٨٨

عبارات عربية رقت بالخط ، الكوفي ، كانت أول الامر تتكون من تكرار كلمة « بركة » أو « بركة من الله » أو « نصر من الله » ، أو ما شابه ذلك منسوجة في صلب القطعة كأنما هي جزء من الزخارف .

ومن عجب أن نظل نشاهد في العصر الاسلامي تلك الاشرطة الزخرفية ذات الأطراف السهمية التي كانت تحلى أكتاف الاقية في العصر القبطي ، مع يسير من التعديل في زخارفها (١) .

والمعروف أن فن النسيج لم يتخذ صبغة اسلامية واضحة إلا في العصر الفاطمي ، حين أمكنه التحرر من قيود الأساليب القبطية ، والتخفف مما فيها من جفاف وغلظة ، سواء في طريقة النسيج أو في الزخارف التي تحلها .

وكانت لمصر القديمة شهرة خاصة في صناعات الخشب ، حذق القبط مهارة أجدادهم فيها ، وكثر استخدامهم للأخشاب المزخرفة في الكنائس لصناعة المقاعد والمذابح وغير ذلك من الأثاث ، الكنسي — وأخذ العرب عنهم استخدام الأثاث الخشبي في المساجد ، فصنعوا السقوف من الخشب وجمّلوها بالحفر والنقش عليها ، وزخرفوا المشاهد والقباب وغيرها بالخشب المنقوش ، وصنعوا الدكك والمحاريب الممتلئة وحوامل المصاحف . وقد اجتازت هذه الصناعة بدورها مرحلة انتقال . وفي دار الآثار العربية أمثلة من أخشاب عصر الانتقال عليها زخارف هلينية الطراز تعلوها مسحة ساسانية (٢) . ومن أوضح عناصر الزخرفة في الخشب في هذا العصر عناقيد

(١) قارن اللوحة رقم ٧ من دليل المنسوجات المحفوظة بمتحف «سوث كنزنجتون» (العصر الاسلامي)

بالوحة رقم ٥ من الدليل المذكور (العصر القبطي)

(٢) والمقصود بعصر الانتقال العصر الذي يمتد من القرن السابع حتى القرن التاسع الميلادي —

وهو العصر العربي الاول الذي مهد للاستقلال الطولوني من الناحية الفنية .

العنب وأوراقه .. ولعبت الكتابة العربية الكوفية دورا هاما في زخرفة هذه الاخشاب ، وكانت بمثابة « الخاتم » الرسمي الذي دمج المنتجات الخشبية فأصبحت به اسلامية الطابع — والكتابات الكوفية التي نراها فوق هذه الاخشاب نوع بسيط خال الزخرف ، قصير القوائم متزن ، وليس من شك في أن هذا الطراز من الكتابة مهد لظهور « الكوفي الطولوني » ، وكون نواته الاولى .

وتشارك الصناعة الخشبية صناعة البناء في تأثيرهما معا في عصر ابن طولون بأساليب العراق الفنية ، ولا عراة فهما صنوان متلازمان لكثرة استخدام الخشب في العمائر على شكل سقوف وأفاريز وأبواب ونوافذ وغيرها . وتظهر أساليب سامرا العراقية في زخارف الجص أيضا ، وهي في مجموعها زخارف تميل في طريقة قطعها الى الاستدارة .

ويتكلم المقرئ (١) عن تماثيل من الخشب اتخذها « خماروية » بن أحمد ابن طولون في « بيت الذهب » تمثل صورته وصور حظاياه ، على علو قامته ونصف ، لعلمها بقية من خبرة المصريين بصناعة التماثيل .

والعلاقة وثيقة بين صناعات الخشب الطولونية وصناعات الخشب الفاطمية ويشرح مرحلة الانتقال بينهما الاستاذ الدكتور كينل Kühnel مدير القسم الاسلامي بمتحف برلين ، وهو يلح في اثبات تطور الثانية عن الاولى — ولعلنا نجد في ذلك الترابط الملحوظ في الطرز — القبطية والطولونية والفاطمية — اثباتا أي اثبات للنظرية التي نريد أن ندعمها ، وهي تطور فن مصر

في العصر الاسلامي في جملته عن فنون مصر السابقة على الفتح العربي .

ويحدثنا الدكتور بطر في كتابه « الخزف الاسلامي » عن ازدهار الفنون عامة في القرن السابع الميلادي في مصر ، وعن أخذ العرب عنها بطريق استخدام القبط الذين يرجع اليهم الفضل في الاحتفاظ بتقاليد هذه الفنون في عصر الانتقال من حكم الروم الى الحكم الاسلامي (١) .

وتبعث كثرة ما عُثر وما يعثر عليه في أطلال الفسطاط من قطع الخزف على الاعتقاد بأن الفسطاط كانت مركزا هاما لهذه الصناعة لا سيما وقد عثر المنقبون على قطع خزفية كاملة تلفت في الافران فشاها شكلها ، وغدت لا تصلح لما صنعت له — ووجود امثال هذ القطع الكاملة الشائبة ، من أقطع الادلة على قيام صناعة الخزف في نفس المكان الذي عثر عليها فيه .

ونحن نرجح أنه كان في موضع الفسطاط مركز لصناعة الخزف في العصر السابق على العصر العربي ، قدر له النماء والازدهار في ظل الحكم الاسلامي . ولا يبعد أن يكون لتحريم اتخاذ الآنية من الذهب في الاسلام علاقة بنشوء صناعة الخزف ذي البريق المعدني (Lustre Pottery) في الفسطاط . وأن كان هناك خلاف في الرأي فيما اذا كانت الفسطاط مركز تلك الصناعة الخزفية ذات البريق المعدني ، أم أنها صناعة مستجلبة من العراق — وليس يهمننا هذا في ذاته ، انما الذي يهمننا هو أن صناعة الخزف كانت في العصر القبطي أقل جودة منها في العصر الاسلامي عامة ، وأن صناعة الخزف الطولوني بوجه خاص كانت صناعة غير متقدمة ، رسومها تقليدية ، وصور

الاشخاص التي تحملها تشبه الرسوم القبطية على المنسوجات — وهي صور قيحة تبدو فيها العين مستديرة استدارة غير طبيعية، ويظهر الانف خطين رأسيين متوازيين في نهايتهما دائرة تمثل الفم، وقد كان من المحتمل نسبتها الى العصر القبطي — لولا أنها تحمل كتابات عربية كوفية .

ويرى الاستاذان «جروهمان» ، «أرنولد» ، أن الصور التي عثر عليها في الاشمونين وغيرها مرقومة على أوراق البردى (من القرن التاسع — الثالث الهجري) أن هي الا رسوم تذكرت بأساليب الفن المصري القديم (١) . والصور التي بهذه الاوراق البردية كثيرة الشبه بالصور المرقومة على الخزف الطولوني — أفلا يدل ذلك على اتساق الصلة بين الفنون القديمة ، وفنون العصر الطولوني برمتها ؟

تلك بعض النواحي التي برز فيها الصانع المصريون ، وهناك كثير غيرها من فروع الصناعة كانت للمصريين به دراية تقليدية ، فقد حذق هؤلاء صناعة المعادن وصناعة الزجاج ، ولهم في هذه الاخيرة تفوق موروث تشهد به مخلفات الفراغنة من الآثار الزجاجية وأعمال المينما ترخرت به المتاحف الكبرى .

وقصارى القول أن المصريين من القبط الذين اسلموا أو الذين بقوا على دينهم ، كانوا عماد الصناعة التي ازدهرت في مصر في العصر العربي ، وهم الايدي التي خدمت العرب ، ومكنت من أن يكون لهم بمصر فن خاص ، وكونت

الفن الطولوني المستقل — وبدون هذه الايدي لم يكن ممكناً أن ينشأ للأمة المصرية الاسلامية التي تم نضوجها في القرن الثالث الهجري فنٌ تعتمد عليه ، وتتخذ دعامةً من دعائم الاستقلال .

حقاً أن ابن طولون استجلب من العراق بعض الفنون المعمارية وبعض الأساليب الخاصة في الفنون الفرعية . وكادت تغطي تلك الأساليب العراقية على الفنون المحلية وتعمى النظر عن الأساليب القومية الموروثة ، وتسقط من تاريخ الفن المصرى فصلاً من أهم فصوله — ولكن على الرغم من استعارة الطولونيين أساليب سامرا الزخرفية ، ومحاكلتهم فنون العراق المعمارية في بناء «القطائع» والمسجد الجامع ، ليس في الامكان أن تتجاهل الفن القومى المصرى بحال من الأحوال — ولا عجب فان رغبة ابن طولون في الاستقلال عن الخلافة ، جعلته يطمح إلى منافستها — وحدا به طموحه هذا إلى الأخذ عن فنون سامرا ، حتى لقد كادت عاصمته تبز مقر الخلافة ، وتفوقه عمراناً ، وأسرف الطولونيون في أعمال التعمير ، وما يتصل بها من فنون الانشاء والتجميل اسرافاً شديداً . وقد كان البذل ضرورة من ضرورات الاستقلال الطولوني ، وبه توفرت لبلاط الطولونيين أهبة ضارعت أهبة البلاط العباسى ، بل كادت تفوقها ، وكان ذلك في وقت كثرت فيه فتن « الزنج » ، وتعددت ثوراتهم على الخلافة ، وأخذت الفوضى تدب في جسم الدولة وتهدهد من كيانه هذا .

وكان شأن الطولونيين في ذلك ، شأن الحكومة الرشيدة التي تبادل شعبها حباً بحب ، وتأخذ بيده إذا هم بالنهوض ، وتقبله من عثرته إذا عثر — ذلك الشعب الذى تم نضوجه في مدى قرنين من الزمان ، استعاد في خلالها ما كان له من صفات قومية مجيدة ، والذى لم يتخل لحظة عن تقاليده في

الفنون ، وطرائق الحياة ، ولم يفته هذه المرة أيضاً أن ينتفع بمزايا الفنون الأخرى ، لما ركب فيه من طبيعة المهادنة والمودعة — ومن شأنهما أن يساعدا على الاستفادة والانتفاع .

بهذا هضم الفن المصرى التقليدى العنصر العراقى الذى وفد عليه ، إلا أن ذلك الاقتباس كان موقوتاً ، فقد أخذ يزول بزوال الدافع اليه — فما كادت الدولة الطولونية تضمحل ، حتى تلاشى معها ذلك المؤثر الأجنبى . وعادت البلاد من جديد أساليبها الفنية الخاصة .



ويذهب مؤرخو الفنون إلى اعتبار الفن الطولونى فصلاً مستقلاً فى التاريخ الفنى لهذه البلاد بسبب ما فيه من العناصر الأجنبية الغالبة — ولكن الذين يذهبون هذا المذهب يتجاهلون أخذ الفنون لاحقاً من سابقها تجاهلاً تاماً ، ويغفلون تقدم البلاد السياسى ونضوجها القومى — وهم بذلك يأخذون بالفكرة التى ترى فى «ابن طولون» مجرد نائر على الخلافة، للاحققاً لآمال أمة . ونحن لا نحب أن نرى رأى هؤلاء — لأننا نؤمن بأن الحركة الطولونية الاستقلالية كانت تعبيراً عن شعور أمة دأبت على الاستقلال ، ونرى فى ابن طولون بطلاً أدرك مثل البلاد العليا ، وأخذ على عاتقه الأمر الجلل ، والحادث الخطير ، ألا وهو تحقيق تلك المثل العليا التى انطوت عليها قلوب المصريين من أقدم العصور .



المظهر الفني — ٣

استطراء...

الفن الطولوني بداية لتطور عظيم — العصر الاخشيدى عصر انتقال إلى
فنون الفاطميين — الفن الفاطمى فن مصرى غنى بالتقاليد الأجنبية
— الفن الأيوبي يقتبس من فنون السلاجقة وشمال العراق — قوة
المؤثرات الأجنبية — فن المماليك فن مصرى رغم ما به من عناصر
أجنبية — روعة الفن المعمارى المملوكى والفنون الفرعية — فن متميز عن
فنون البلاد الإسلامية الأخرى — عتاد فنى لم يجتمع لأمة إسلامية — أثر
الأتراك فى انحطاط الفنون المصرية زمنًا — الفن فى العصر التركى — الفن فى
عصر محمد على الكبير — فى العصر الأخير .

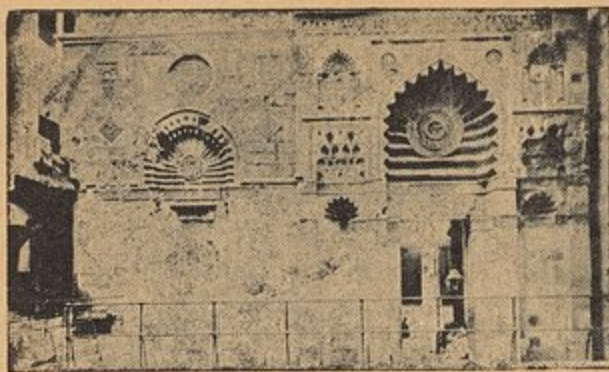
وفى ما يلى وصل سريع للحقائق :

١ — بزغ بالعصر الطولونى فجر الفنون الإسلامية فى مصر . ولقد رأينا
أنها لم تكن فنوناً دخيلة على هذه البلاد إلا فى وجه من وجوهها ، فقد ثبت
لنا أن رجال الفنون والصناعات فى القرنين الأول والثانى الهجريين كانوا من
المصريين الوطنيين الذين أسلموا أو ممن بقوا على دينهم المسيحى . بهذا تقول
« فان برشم »^(١) فتؤيد ما نذهب اليه من استمرار التقاليد المصرية فى الفنون
الإسلامية . وكانت تلك التقاليد قد تطورت حتى أدركت العصر الإسلامى

(١) (Van Berchem.) — كتاب العمارة الإسلامية الأولى Early Muslim Architecture

مزيجاً من فنون مصر القديمة والبيزنطيين والساسانيين .

يقول مؤلف « الفن الاسلامى فى مصر » : « وكما عمل الوطنيون فى الحياة الاجتماعية على مسالمة العرب الفاتحين وارضائهم ، فان الصناع منهم ما لبثوا ان بدأوا تطوراً منتظماً كان أهم عوامله إرضاء المسلمين والتجيب اليهم وانتاج ما يوافق ميولهم وتعاليم دينهم » — ونحن نرى فى ذلك بداية انقياد الفن المصرى وخضوعه للإسلام وخدمته الجلى لاغراضه وتعاليمه ، فقد رأينا رجاله يتابعون خدماتهم فى ميدان الفنون كما تابعوا خدماتهم للعرب الفاتحين فى ميدان الإدارة — بل لقد كانت خدمات المصريين للعرب فى ميدان الفن أطول وأبقى على الايام من خدماتهم لهم فى ميدان الادارة — ذلك أنه بمجرد أن عربت الدواوين ، ومرن العرب على الحكم ، أصبح فى مكنتهم الاستغناء عن خدمات المصريين — ولم تكن الحال كذلك فى ميدان الفنون ، فقد قدر للمصريين أن يبقوا قائمين على شئونهم آماداً طويلة ، لأن لهم فيها مهارة موروثة لم يكن للعرب بد من الاعتراف بها والاذعان لها . وكان العرب فى ذلك فطنين أشد الفطنة الى المصلحة العامة التى كانت دائماً رائدهم فى كل ما صدر عنهم من تصرف فى شئون البلاد التى انتهت مقاليدها الى أيديهم . ودرج ذلك التطور الفنى فى سبيله حتى لحق العصر الاخشىدى الذى يعتبر عصر النقلة من فنون الطولونيين الى الفنون الفاطمية ، وأخذت المؤثرات العراقية تتلاشى من فنون وادى النيل ، وبدأت تعود الى هذه الفنون تقاليدها المصرية الصميعة — وظهر على ضفاف النيل فى العصر الفاطمى فن اسلامى رائع ، فيه من الاصول المصرية القديمة ، ومن تقاليد الشرق والغرب مزيج يثير الاعجاب بجماله وقوة اثتلافه .



٢ — ولقد كان
العصر الفاطمي
عصر انقلاب في
التاريخ المصرى
السياسى ، يرتبط
ارتباطا وثيقا
بتاريخها الدينى —

ففيه تحولت الحكومة الى « الشيعة » المتطرفة ، وكان لذلك أثره على وجوه الفكر
المختلفة — والحق أنه قد أخذ يحل بالأراء المصرية فى الحياة وطرائق الحكم ،
وفى الفنون والآداب ووجوه الثقافة عامة تغيير جوهري ، هو نتيجة لسيادة
الأراء الفارسية على البلاط الفاطمي ، وسيطرة الفن الفارسي وغلبة أساليبه
على الفنون المصرية المحلية (١) — حتى لقد يصح القول بأن الفن المصرى الفاطمي
لون من ألوان الفنون الفارسية الساسانية ، مصرى الموطن .

والى جانب هذا الاثر الفارسي ، تأثرت عمارة الفاطميين وفنونهم إلى حد بعيد
بأساليب البربر فى شمال افريقية ، وطرز الفنون الاموية الغربية فى الاندلس ،
منتقلة من أسبانيا بطريق شمال افريقية إلى المهدية ، والقيروان ، ومن ثم
مع الفواطم ، إلى مصر فى حكم « المعزدين الله » .



٣ — وكانت الدولة الأيوبية سلجوقية الطابع فى أغلب صور الحياة
فيها ، استجلبت إلى هذه البلاد أساليب « السلاجقة » فى التعليم وفى الفنون ،

(١) راجع كتاب « كنوز الفاطمين » ، الدكتور زكى حسن ، ليرى كيف كان التأثير الفارسي على
الفنون المصرية الفاطمية بالغا فى ميادين التصوير والحزف والنسيج وحفر الخشب

وجعلت من فنون البلاد ومن الفنون المستجلبية اسلوباً جديداً ، عرفت به مصر الأيوبية، به من الانسجام والتآلف ما يبعث على الارتياح والاعجاب . ولا يكاد مؤرخ الفنون يفرق بين ما هو من العصر الفاطمي المتأخر، وما هو من العصر الأيوبي من صناعة الخزف مثلاً — وهو مضطر بحكم اقتناعه بتطور الصناعة وانتقالها التدريجي من عصر الى عصر ، الى الحكم غير القاطع على التحفة الفنية — قتره يقول : « هذه الفئة من الخزف ، اما فاطمية متأخرة ، أو أيوبية مبكرة » — إذ ليس إلى الجزم في الحكم على التحفة الفنية من سبيل . وما يقال في صناعة الخزف وتطورها ، يقال مثله في ميادين الصناعة الأخرى — اللهم الا بعضاً من الصناعات ، كصناعة النحاس المكفت بالفضة أو الذهب ، فأنتا نلاحظ فيها ما يبعث على الظن بأن منتجات هذا المعدن المنسوبة الى العصر الأيوبي ، إما مستجلبية من مراكز صنعها في شمال الجزيرة في الموصل ، أو مصنوعة في مصر بأيدي أجنبية حذقت اصول هذه الصناعة من قبل .

ومهما يكن من شيء ، فقد كسب الأيوبيون لمصر تفوقاً في ميدان الفنون الفرعية ، يضاف اليه ما كسبه لها في ميدان العمارة بادخالهم نظام المدرسة الاسلامية ، ثم ما حدث من ازدهار صناعة الخزف ذي الزخارف المنقوشة تحت الطلاء على عهدهم — وينهض ذلك كله دليلاً على استمرار تطور الفنون المصرية واستفادتها من فنون البلاد المجاورة بطريق الاقتباس وهجرة الصناع .



٤ — ومن الحق علينا أن نقول أن التيارات الأجنبية التي بدأت تلحق



الفن المصرى المحلى منذ العصر الفاطمى ، كانت من القوة بحيث استطاعت أن تغزو فنون البلاد المحلية فى الصميم ، وأن تختلط بها اختلاط امتزاج غير من معالمها كثيراً ، وأخفى من طابعها الأصلى كل شىء تقريباً ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقول أن المصريين قد تنحوا عن العمل فى ميدان الفنون ، أو أن فن

المماليك لم يكن فناً مصرياً — فإن به من التقاليد القديمة ما يكفى للاحتفاظ بالصفة المصرية لهذه الفنون، وإن طغت عليها الأساليب الأجنبية السلجوقية والمغولية والسورية والصليبية وغير ذلك من التيارات التى أصابت هذه الفنون من شمال الجزيرة العراقية والأندلس .

ولا يسع الباحث فى فنون المماليك إلا الإعجاب بها فى أجمالها وتفصيلها . وأنه لىكفى أن تنظر إلى مسجد من مساجد المماليك كمسجد المؤيد أو قلاوون أو السلطان حسن ، حتى تأخذك روعة البناء ويهرك جماله ، لمجرد النظر إليه ، فإذا تفرست فيه تفرس الباحث ، أدركت المدى البعيد من التقدم الذى بلغه



رجال الفنون فى عصر المماليك فى فن العمارة ، وتمسكك الإعجاب البالغ بتلك المقدرة الفائقة على حسن الاقتباس ، ومهارة الجمع والتأليف بين الأصول ، حتى خرج من كل ذلك فن معمارى رائع عظيم الانسجام . وأنتك لا تجد ، وأنت تطوف الممالك الإسلامية ، فناً معمارياً يشبه هذا الفن — فهو فريد فى نوعه ، مصرى

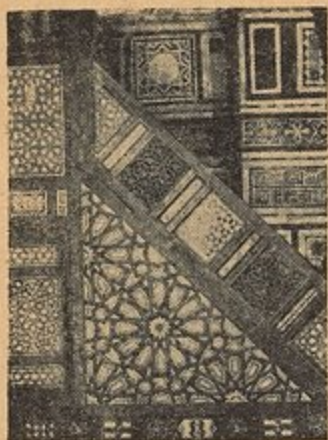
لا يشاركه في صفاته فن معماري آخر من
فنون الممالك التي أوجدها الاسلام .

وفي ميدان الفنون الفرعية لا يقل
عجابك بمخلفات الممالك الرائعة ، وأن
جولة واحدة في الأقسام الاسلامية
بمتاحف أوروبا ، وفي دار الآثار العربية
بالقاهرة ، لتكفي لاطلاعتك على تقدم
هذه الفنون وبلوغها غاية الكمال في مختلف
نواحيها — فقد اجتمع لمصر من طريف
الفن وتليده ما لم يجتمع لأمة اسلامية ،



فهذه « التحف النحاسية » الرائعة المسكفة وغير المسكفة ، وتلك
« المشكاوات » المموهة بالمينا ، والمنسوجات الحريرية الجميلة الصنع ، والخزف
بأنواعه ، والأسلحة البديعة ، والأخشاب المطعمة بالعاج والأبنوس ،
وصفائح النحاس المطروق ، والواح النحاس المخرم بالزخارف العربية التي
تجل عن الوصف ، تحلتي بها أبواب المساجد والعماير ، وتلك اللوحات الرخامية
ذات النقوش البديعة ، وتريعات « القاشاني » التي تحاكي صناعة « قاشان »
الایرانية ، ونقوش الخشب ، والمصاحف الخطية الضخمة المذهبة الصفحات —
تقوم شاهد عدل على ما بلغه فن مصر الاسلامية في عصر المماليك . ولا غرو ،
فقد كان الفن مظهرأ من أروع مظاهر الحياة المملوكية ، المليئة بشتى معاني
القوة والجلال .

٥ — بعد هذه السطوة السياسية ، وذلك التفوق الفني العظيم الذي بلغته



البلاد على عهد المماليك ، أصيبت البلاد
بكارثة الفتح العثماني منذ عام ١٥١٧
للميلاد ، وفقدت حيناً من الدهر
سلطانها السياسي ، واستحالت من دولة
واسعة الأطراف إلى ولاية عثمانية
انحط كل شيء فيها إلى الدرك الأسفل ،
وظهر أثر ذلك الانحطاط سريعاً في
عالم الفنون ، فقد جرّد السلطان العثماني

«سليم الأول» مصر من مهرة صناعاتها ، إذ أرسل الكثير منهم إلى القسطنطينية .
وانتهى بهذا الحادث طراز العمارة المملوكي ، وأخذت المسح البيزنطية والتركية
تظهر في فنون مصر المعمارية منذ الفتح العثماني ، وكان ذلك إيذاناً بذهاب
تلك الروعة التي وسمت الطراز المملوكي ، على أن القضاء على الأساليب
المملوكية للعمارة لم يكن تاماً ، فقد قاومت بما فيها من خصائص قوية هذا
الغزو الجديد ، وصمدت له — وهذه مساجد «سليمان» «باشا» و«سنان» «باشا»
و«الملسكة صفية» و«أبي الذهب» و«البرديني» ما تزال تحتفظ بكثير
من مزايا الطراز المملوكي رغم انشائها في العصر التركي . أما الفنون
الصناعية فقد أخذت في التدهور والانحطاط السريعين حتى انتهت إلى الزوال .
ولحق التقهقر هذا الطراز العثماني المعماري نفسه منذ أواخر القرن الثاني
عشر الهجري ، قبيل الحملة الفرنسية وظهور محمد علي الكبير .

٦ — واستحدث محمد علي باشا طرازاً جديداً في العمارة ، جمع فيه

بين الطرز المصرية والعثمانية والغربية الفرنسية ؛ وما لبثت طرز العمارة أن
اختلفت بعد ذلك اختلاطاً جعل منها فوضى معمارية ، وأخذت الروح
الأوروبية في البناء تتغلب على المباني المصرية في القرن الأخير تغلباً
لا سبيل إلى رده ، فقد أقيمت المباني العامة على الطرز الأوروبية محاكية
مباني عصر النهضة الأوروبية « الرينيسانس » ، والمباني « الكلاسيكية » اجمالاً .
أما مباني الأفراد في الوقت الحاضر فلا تتبع نسقاً خاصاً ، ولا ترعى
أصولاً بذاتها — وللابتكار فيها مجال فسيح .



المظهر الأدبي — ١

سيادة العربية

الصراع بين القبطية واليونانية - نهوض اللغة القبطية القومية ومناستها
اليونانية - لغة السريان لغة العلم - الآداب القبطية آداب دينية بحث - العلم
الاسكندري - نقل العرب عنه - العربية تغزو العلم ودواوين الحكومة - تجد
طريقها إلى الكنائس - حركة نقل من القبطية واليونانية إلى العربية في القرن
الرابع الهجري - وسائل انتشار العربية : اختلاط العرب بالمصريين - العربية
لغة الدين الجديد - الرغبة الملحة في الاستعراب - الضرورة المعاشية - قبوع
القبطية في الأديرة والكنائس - القبطية تصبح لغة كالية .

كان آخر عهد الاسكندرية بالعلم اليوناني، ذلك اللون من الجدل الفلسفي
الذي اشتد بين أنصار المسيحية والوثنيين . وهو نوع من العلم الديني احتاج
إلى الاستعانة بالفلسفة والمنطق اللذين راجتا دراستهما في العصر الروماني،
مقترة بحركة الجدل الديني أشد الاقتران واقواه .

وكانت لغة البلاد الرسمية في العصر الروماني هي اليونانية (١) ، غير أنه
منذ القرن الثالث الميلادي، أخذت الروح القومية المصرية في الظهور والقوة،
وكان من أثر ذلك أن بدأ رجال الدين المصريين يعطون الناس باللغة المصرية
بعد أن كانوا يعطونهم باليونانية — لغة الحكومة والكنيسة الرسمية . وبدأ

(١) كثر مير — أبحاث في الأدب المصري واللغة المصرية .

القبط بعد ذلك التاريخ يغفلون الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم الخاصة ، فدونوا بها تأليفهم في حياة القديسين وتواريخ الشهداء وكتبوا بها الأشعار .

وسارت اللغة القبطية جنبا الى جنب مع اللغة اليونانية التي بقيت لغة البلاد الرسمية بعد الفتح العربى زمنا ليس بالقصير ، غير أنه على الرغم من نهوض اللغة القبطية فى العصر الرومانى لم ينتج القبط بها أدبا ينافس الآداب اليونانية التى ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ — والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور الأدباء طوال العصر الرومانى ضرورة ثقافية لا غنى عنها . وبها كتب الأدباء والشعراء نثرا وشعرا (١) . ومن أشهر هؤلاء فى القرن الرابع الميلادى « لوسيانوس » صاحب كتاب « محاورات الموتى » و « اخيلاس تاتيوس » المؤلف الروائى ؛ ومن أذيعهم صيتا فى القرن الخامس ، الشاعر المصرى « قيرس الاخيمى » وفى القرن السادس ، الشاعر الطبى « كريستودورس » . ومن العلماء المعروفين فى هذا العصر « ديسكوريدس » النبأى المصرى المعروف ، صاحب كتاب « خواص العقاقير » الذى حرص العرب على اقتنائه وصنوه فى العراق .

والى جانب اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، كانت هناك لغة ثالثة هى لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو الفارسى على بلدان آسيا الغربية ، وعكفوا على العمل فى اديره وادى النطرون (٢) . ومن عجب أن تصبح لغة السريان هذه لغة العلم ، ولا سيما العلم الطبى ، فيها دون سواها كانت تدرس

(١) لجنة التاريخ القبطى — تاريخ الأمة القبطية ص ٢٣٤ وما بعدها

(٢) بطر — فتح العرب لمصر : (الفن والآداب)

العلوم الطبية في القرنين السادس والسابع الميلاديين — وسأيرت هذه اللغة السريانية لغة البلاد الرسمية اليونانية ولغتها القومية القبطية، وبلغ من شيوعها أن ترجم الكتاب المقدس إليها، وكتب بها القس «أهرون» الاسكندري مقالاته في الطب، وغدت السريانية بالاجمال ضرورة من ضرورات العصر الأدبية لا تقل شأنًا من حيث هي لغة علم، عن اليونانية ذاتها، وحذقها كثير من محبي العلم، وخدموا بها العرب خدمة جلي في عصر النقل الأعظم.



وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين اليونانية والسريانية، كانت لغة البلاد القومية تكافح وتناضل لتتخذ لنفسها مكانة تليق بأمة تطمح الى الاستقلال وتعمل له جاهدة؛ فقد استطاع الاقباط أن ينفصلوا عن جسم الدولة انفصالا روحيا تجلى في اتخاذهم مذهبا دينيا يخالف المذهب الرسمي، كما تجلى في النهوض بفنونهم الخاصة، وفي إحياء لغتهم القومية، واستخدامها في الوعظ والصلاة والتأليف، فيها كتب المؤرخ «حنا النقيوسي» ديوانه المشهور، وأن يكن قد دون جزءاً منه باليونانية؛ وكتب بها الرهبان توارخ القديسين والشهداء وأخبار البطارقة، وإليها ترجم العهد الجديد.



ولا نستطيع أن نبالغ في قيمة الآداب القبطية، فلم تعد أن تكون آداباً دينية في مجموعها (١). وليس للقبط إنتاج أدبي بحت يمكن أن يفخروا

(١) بطلر — «الكنايس القبطية القديمة» — المجلد الثاني ص ٢٤٧

به (١) ، اللهم إلا قليلا من مآثور الحكم وبعض الأشعار . وظل هؤلاء بمعزل عن الاسكندرانيين ورثة العلم اليوناني ، ولعلمهم كانوا ما يزالون على اعتقادهم القديم بأن العلم الاسكندى علم وثني ، لا يجدر بهم أن يتناولوه ، ولا أن يخوضوا فيه . هكذا أدرك العرب الاسكندرية وبها من العلم اليوناني بقية أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات عن طب جالينوس ، ومآثور من حكم « بقراط » ، وشيء كثير من التنجيم والمعجزات (٢) ، وعلم الصنعة (الكيمياء) ، وفلسفة متمزجة بالدين أشد الامتزاج ، ترمى إلى خدمة المثل الأعلى المسيحي ، على أساس من مذاهب أفلاطون وأرسطو .

وكان العلم الديني أهم ميدان جال فيه مسيحيو الاسكندرية . وأغلب الظن أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا من القبط ، فقد كره القبط دراسة فلسفة الاسكندرانيين كراهية كبرى ، ولم يحاولوا كما حاول غيرهم من الطوائف المسيحية ، أن يستخدموها لتقوية العقيدة المسيحية ، بل كان لهم أسلوبهم الخاص المعروف في الدفاع عن المسيحية . لهذا كله — وفد العرب على القبط فلم يجدوا بين أيديهم علماء أو أدباء أو فلسفة ، بل وجدوا عندهم دراية في الفن لا تجارى ولا يُجْحَد فضلها . ولم يفت العرب أن يستفيدوا مما وجدوا في الاسكندرية من طب القدماء وعلومهم ، فنقلوا منهما الكثير في العصورين الأموي (٣) والعباسي .

(١) لم يخرج القبط في ذلك عن سنن أجدادهم القدماء الذين كانت كل آدابهم لاهوتية — يشهد بذلك كتاب الموقى وتؤيده متون الاهرامات .

(٢) راجع بطر — « فتح العرب لمصر » ، (الفن والآداب)

(٣) يروى عن خالد بن يزيد الأموي أنه استخدم عدداً من العلماء ذوى الدراية باللغة السريانية في نقل كثير من معارف الاسكندرانيين في علم الكيمياء — ماير هوف : نهاية مدرسة الاسكندرية

ومن أشهر الناقلين عن العلم الاسكندى (اليونانى) الطبيب ابن أبحر الكنانى، الذى استخدمه الخليفة «عمر بن عبد العزيز» فى نقل الطب إلى العربية، و«أبو الفرج بن العبرى» صاحب الفرية المشهورة عن احراق العرب لمكتبة الاسكندرية ومؤلف كتاب «مختصر الدول»، و«ابن الناعمى» الذى نقل إلى العربية كتاب «فورفيروس الصورى» تلميذ أفلوطين الاسكندرى، و«سرجيوس الرسعى» و«حنين بن اسحق» رأس المدرسة الطبية الناقلة فى بغداد، وابن أخته وكثير غيرهم.



ومما يثير الدهشة والعجب، أن ينزل العرب بلداً كمصر، لغتها الرسمية يونانية، وبها من اللغات الأخرى السريانية والقبطية: الأولى لغة العلم، والثانية لغة مناهضة للغة الدولة الرسمية، يعمل القبط غاية جهدهم فى نشرها، ويتخذون منها أداة لهدم ما بينهم وبين الدولة الحاكمة من روابط — فلا ينقضى طويل زمن، حتى تغزو العربية هذه اللغات جميعاً فى مكانها، فتقضى على أولاهما فى دواوين الحكومة قبل انصرام القرن الأول الهجرى، وتستخدم الثانية وسيلة لنقل علوم الاسكندريين، ولا يكاد ينقضى القرن الثالث الهجرى حتى تجد العربية سبيلها إلى كنائس القبط، فوعظ بها رجال الدين، وكتبوا بها سير الآباء المسيحيين وخطوا بها الإنجيل — وفى القرن الرابع الهجرى قام الأسقف «ساويرس بن المقفع» بمساعدة طائفة من رجال الدين الأقباط بنقل ما وجدوه من القلم القبطى والقلم اليونانى إلى العربية.

وكانت العربية فى ذلك كله قوية جارفة، لم تقو اليونانية أو السريانية أو

القبطية على الوقوف في وجهها .



كان انتشار العربية غداة الفتح محدوداً فلم يكن يتكلمها إلا العرب في مضاربهم ومن جاورهم من أهل البلاد ، بمن دفعتهم الضرورة المعاشية إلى تعلمها . وكان الاسلام في ذاته دافعاً كافياً لمعتنقيه من المصريين إلى تعلم العربية ، كي يتمكنوا بها من قراءة الكتاب والسنة وتفهم أصول الدين ؛ وكان لانسياب العرب في الريف المصرى في كل خريف ، واتصالهم بالمصريين ، أثر كبير في نشر اللغة العربية بين طبقات المصريين .

ثم جاءت حركة الاستعراب الكبرى وذهب القبط فيها إلى إهمال كثير من مظاهر قوميتهم ، وسارعوا إلى اعتناق الدين الجديد ، واتخاذ لغته في أمورهم الخاصة . وفي معاملاتهم مع المسلمين . وتحمل لنا أوراق البردى المتخلفة من العصر العربى الأول ، والمحفوظة بقسم الأوراق البردية بدار الكتب المصرية (١) أصدق الأدلة على شيوع استعمال العربية بين القبط . وأصبحت اللغة القومية (القبطية) في المحل الثانى بالنسبة للغة العربية التى غدت لغة الحكومة والأفراد جميعاً .

وقبعت اللغة القبطية في الكنائس والأديرة ، ولم تنج من مهاجمة العربية لها ، فقد غزت هذه الأخيرة الكنائس والأديرة ، وشاركت اللغة القومية في مهمتها الدينية ، فكانت المراسيم الكنسية تصدر بلغة البلاد الأصلية ، ثم تشرح بالعربية ليتمكن رجال الدين الأقباط من فهمها ! إذ بغير ذلك لم يكن

(١) وهي التى ضمنها الأستاذ « جورمان » مؤلفه عن أوراق البردى العربية .

إلى فهم القبطية من سبيل . وأصبحت اللغة القبطية منذ ذلك الحين لغة كالية لا يحذقها إلا المثقفون من المصريين ، على نحو ما كان الحال غداة الفتح حين كان العالم يفخر بحذقه لغة اليونان أو لغة السريان — وكما هو الحال الآن بين الطوائف المثقفة التي تعرف اللاتينية أو الأغريقية معرفة ترف فكري ؛ وهكذا قضت العربية بالتدريج على لغات اليونان والسريان والقبط ، وكتب لها في عالم الثقافة نصر كبير .

وساعد تفوق العربية على خلق حياة أدبية مصرية اسلامية ، كانت بدورها مظهرا من مظاهر مصر الاسلامية .



ثقافة جديدة وأدب جديد

مصر مركز ثقافي إسلامي هام - تنشط بها الدراسات الدينية -
رواة القراءات والحديث - الجدل بين المالكية والشافعية واسلوبه - علوم
النحو والتاريخ - بعض كبار المؤرخين - فريق من من فطاحل الأدباء
والعلماء يفتد إلى مصر ويفيد من شهودها - العُرب يشغلون بهذه الدراسات
الإسلامية عن علوم الاقدمين — أثر الجدل الديني في الأدب - قلة الآثار
الأدبية المتخلفة عن هذا العصر - تبعية مصر للعراق تبعية أدبية — أثر وضع
دواوين الانشاء في رقي اللغة - لغة التأليف ولغة التراسل .

كان من اثر سيادة العربية على غيرها من لغات اليونان والسريان والقبط،
ان أصبحت مصر مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية عظيم الاهمية . ولقد
كانت هذه الثقافة الإسلامية في القرن الأول الهجري ثقافة دينية ، الغرض
منها تفهم القرآن والحديث وشرح ما غمض من أصول الدين .

نشطت دراسة هذه العلوم الدينية في مسجد «الفسطاط» وكانت لا تتعدى
تفسير القرآن والقراءات وشرح الحديث ، وكان يقوم على أمرها عدد من
الصحابة الذين وفدوا على مصر في موجة الفتح (١) . واشتهر من رواة القراءات
بالجامع العتيق بالفسطاط «عثمان بن سعيد» المصري القبطي الاصل الذي اسلم
أجداده وتعلموا العربية و«ابن يسار» المصري أبو يعقوب الأزرق
يوسف بن عمرو (٢) أحد تلاميذه ، وكان كأستاذه حاذقا لرواية القراءات .
والحق أن الصحابة الذين وفدوا على مصر أكثروا من رواية الحديث

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطي — الجزء الأول طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ١١٨ / ١٤٠

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي — الجزء الأول طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ٢٠٧

وشرحه ؛ ومن أشهرهم «عبد الله بن عمرو بن العاص» و «عبد الله بن وهب» صاحب «الجامع في الحديث» — وفيه جمع كل ما أمكن جمعه من الأحاديث النبوية ، وكان الحديث قبله متفرقا . وكاد يبلغ «ابن وهب» منزلة الأفتاء بمصر . وهو يمثل في مصر رأى المالكية أصدق التمثيل . ومن جامعي الحديث المشهورين «ابن لطيفة الحضرمي» واستاذ «يزيد بن أبي حبيب» العالم في الفقه والحديث ، وصاحب الدراية في علم التاريخ ، وهو الذي اعتمد عليه «ابن عبد الحكم» في وضع كتابه «فتوح مصر» . (١)

ومن أئمة الفقه والحديث «الليث بن سعد» الذي يحدثنا عنه السيوطي طائفا في طلب العلم ناقلا له عن صادقهم من التابعين — وكانت له الفتى في مصر ، لا يكاد يرم قاضيا أو واليا أمرا الا استشاره فيه .

ووجدت الآراء الفقهية في مصر جوا طلقا ، ومرتعاً خصبا ، ففيها انقسم المالكية على انفسهم على اثر وفود «الشافعي» على مصر ، ونشر مذهبه في ربوعها . وكثيرا ما احتدم الجدل بين المالكية والشافعية في «المسجد العتيق» الى درجة اضطر معها بعض الولاة الى اغلاق الجامع ، وظل ذلك الاحتدام قائما حتى عصر الاخشيد ، وقد عرف عنه أنه اغلق مسجد القسطنطين لهذا السبب في وقت ما .

والشافعي أول من أدخل بمصر طريقة «المناظرة» العلمية ، وكان في طريقته يشبه الحكيم اليوناني «سقراط» في أنه كان يناظر ليستفيد من علم مناظره ، أو ليصلح من خطئه — وكان الشافعي على درجة عظيمة من الفصاحة وقوة البيان ، وكان لذلك قوى التأثير في تلاميذه ومناظريه ، وكان

اسلوبه العلمى ذا أثر بالغ فى حركة التأليف والتصنيف ، اذ سلك مسلكه فى البحث كثير من العلماء الذين أعجبوا بطريقته .

كان انتاج العصر العربى الاول انتاجا دينيا فى جملته ، وكان ذلك ضروريا لفهم اصول الدين ، فلقد اتضحت بهذه الدراسات نواح من الدين كانت أول الأمر احكاما كلية مغلقة تحتاج الى شروح وتفسيرات .

على أن الحركة الثقافية لم تقتصر على علوم الدين ، بل لقد كانت للمصريين جولات فى علوم النحو والتاريخ ، واشتهر من النحاة فى مصر « بنو ولاد » واشهرهم محمد التميمى النحوى المشهور بولاد — وهو أول من وضع كتباً فى النحو فى ديار مصر ، وكانت قبله تجمل هذا الضرب من العلم ، وهو تليذ « للهيلي » أحد تلاميذ « الخليل بن احمد الفراهيدى » واضع النحو . ومن النحاة « الدينورى » احمد بن جعفر صاحب « المذهب » فى النحو ، ومنهم « أبو النصر » المصرى تليذ « الزجّاج » (١) — وبفضل هؤلاء قامت بمصر « مدرسة نحوية » خالفت آراؤها آراء العراقيين .

ووفد على مصر ابن هشام صاحب السيرة المشهورة ، ومحمد بن موسى الواسطى ، وابن جرير الطبرى ، وابن قتيبة — وكان لو فودهم عليها ومقامهم فيها زمنا — أعظم الاثر فيما وضعوا من تصانيف فى الأدب ورواية الأخبار والتاريخ . ومن اشهر كتاب التاريخ « ابن عبد الحكم » صاحب « فتوح مصر وأخبارها » وهو المصنف الذى لا يكاد يهمله مؤلف يؤرخ لمصر فى العصر

العربي الاول؛ وهو من أقدم المؤرخين المسلمين الذين سبقوا «الكندى» في وضع كتب الخطط.

ومن المؤرخين الذين ظهروا في مصر غير ابن عبد الحكم، «ابن يونس المصري»، و«الكندى»، و«ابن الداية»، صاحب «المكافأة»، — وكلهم أعلام تفرع آذاننا اسماءهم الفذة، وعليهم اعتمد المؤرخون المحدثون اعتماداً كبيراً، وقدرهم المستشرقون حق قدرهم، وافادوا من مؤلفاتهم اعظم الفائدة وأجلها.

وهذه العلوم التي عني بها المسلمون الأوائل في مصر علوم عربية بحت، تمت الى الدين واللغة بأقوى الاسباب، وتجاوز ذلك الى ميادين أخرى — وهي أثر من آثار الاسلام المباشرة في هذه الديار. وقد شغل بها العرب عن دراسة ما بقي بمصر من علوم القدماء، ومهدوا بها السبيل الى حركة نضوج أدبي صاحبته حركة النضوج السياسي. وأفضحت عنها.

وانتجت حركة الجدل الديني بين المالكية والشافعية أثرها المحمود في النثر العربي في مصر — والادب يفيد كثيراً من الخلافات بانواعها، ففي أتون هذه الخلافات تتحطم الافكار، وينصقل اللفظ، وتجدود صنعة الكلام.

شغل مسلمو مصر بأحداث السياسة طوال القرنين الاول والثاني الهجريين عن التفوق في العلوم أو الآداب والتبريز فيها. والحق أن هذه الاحداث كانت همهم الصارف عن كل شيء، فقد كان الشعب الجديد جد مشغوف بالمساهمة في حوادث العالم الاسلامي السياسية، والظهور على مسرحها كما كان أفرادهم من ناحية أخرى يعملون على الاندماج والوحدة القومية. ولا جدال في أنه سبق تكوين هذه الوحدة صراع عنيف بين اللغة القومية

القبطية ولغة العرب الفاتحين ، انتهى على كل حال بتفوق العربية وحلولها محل القبطية واليونانية معاً ، كما انتهى الحال في ميدان السياسة باستعراب القبط ودخولهم افواجا في الدين الجديد ، وادعائهم الاصل العربي ، وحرصهم على الاستمسك بالعروبة — وعلى الرغم من هذه الصوارف ، نشأت في مصر بعض المدارس الفقهية التي اتخذت من الجامع العتيق في القسطنطينية مكانا للتناظر والجدل ، وهو ذلك الجدل الذي انتج بعض الآثار العلمية والادبية على نحو ما بينا .

وكان من أثر تبعية هذه البلاد للخلافة الاموية في الشام والخلافة العباسية في العراق ، مدة قرنين ونصف من الزمان ، أنه لم تنشأ بها مذاهب مستقلة في العلم أو الادب — اللهم الا في اليسير ، ولم يكن لها من حظ المساهمة في ترجمة علوم الاقدمين من الفرس واليونان والهنود ما كان للعراق ، سوى ما كان من ترجمة بعض كتب الطب والكيمياء . ويفسر ذلك في نظرنا عزوف المصريين من القبط عن الثقافة اليونانية الاسكندرانية ، وجهلهم التام بها ، واضطراب الحالة السياسية في مصر في أعقاب الفتح ، اضطرابا با ظهر في كثرة الفتن والثورات الداخلية على طول هذا العصر . وهكذا لم يساهم أهل مصر ، كما لم يساهم العرب الفاتحون في حركة النقل (الترجمة) عن علوم الاقدمين ، سيما وقد كانت بالاسكندرانية بقية من علوم اليونان عند فتح العرب لهذه البلاد — عزف عنها الأولون لاعتبارهم أياها ثقافة وثنية لا يحمل بهم أن يلبوها ، وانصرف عنها الآخرون بشواغل الحرب والسياسة .

ومما يؤسف له ألا يخلف لنا هذا العصر العربي الاول آثاراً أدبية ذات

بال ، اللهم الا قليلا من الرسائل التي كان يبعث بها ولاية مصر الى الخلفاء أو الى عمالهم على الاقاليم ، وشيئا من المقطوعات الشعرية التي لا تعدو أن تكون بضعة أبيات لهذا الشاعر أو ذاك . ومرجع ذلك أن النابغين من الكتاب ، ونقصد بهم كتاب الادب البحت ، والشعراء ، كانوا ينزحون دائما الى مقر الدولة الاسلامية الكبرى ، طلبا لعطاء الخلفاء .

وقصارى ما نستطيع قوله ، أن لغة الادب في هذا العصر ، ان جاز أن نسمي تلك الرسائل أدبا ، كانت في مجموعها ضعيفة التعبير قبل العصر الطولوني ، كما كانت لغة التأليف ركيكة يعتورها التعقيد الذي حرص عليه المؤلفون العرب .

ولقد يصح أن توصف عربية هذا العصر الاول بالضعف والركاكة اجمالا ، غير أن ضرورة التراسل بين ولاية مصر وخلفاء المسلمين استوجبت شيئا من العناية بلغة الرسائل بنوع خاص .

وكان لوضع دواوين الانشاء منذ أول الفتح أثره الطيب في رقي اللغة ، فقد اختلفت كتابة الرسائل من حيث قيمتها الفنية عن كتابة التدوين التي لم تتجاوز أن تكون تسجيلا للحوادث واثباتا للارقام ، قصد الرجوع اليها في تحديد حقوق الأفراد وواجباتهم .

وفي العصر الطولوني ، كبر أمر ديوان الانشاء ، وقدر للعربية رقي بالغ على يد «ابن عبد كان» صاحب الرسائل المشهورة — الذي يصفه القلقشندي «بحسن الكتابة» ، ويصفه «ابن النديم» بالبلاغة والترسل والفصاحة ، ورسائله تشبه رسائل العراقيين ، وتسموعن اسلوب العصر الاول — ذلك الاسلوب الذي كان يراد به التأدية — على أي وجه تجيء ، أو تصح .

الشعر

حركة أدبية لا بأس بها إلى جانب الحركة الفكرية الدينية - الشعر في هذا العصر - الأغراض التي قيل فيها - وفود الشعراء على مصر ولا سيما في ولاية عبد العزيز بن مروان - بعض من أشعار هؤلاء الوافدين - شعر في العصبية والخلاف بين القبائل العربية - بعض أيام العرب في مصر - شعر لا يتصل بالبيئة المصرية - يعبر عن حياة العرب الخالصة - يعطى صورة عن مصر المضطربة في القرنين الأول والثاني الهجريين - شعر في استعراش القبط - الاندماج بين المصريين والعرب وأثره في اختفاء النعرة العنصرية من عالم السياسة والأدب - شعر يجد الاسرة الطولونية ويبدب زواها - هو تعبير صادق عن شعور مصر المستقلة .

اقتصرت الحركة الأدبية قبل الطولونيين على الدين وما يتصل به من حديث وفقه وتفسير ، وعلى اللغة وما يتصل بها من نحو وصرف ، وعلى رواية الأخبار على شكل قصص أو تاريخ .

ولكن هذه الحركة الأدبية المحدودة لم تلبث ان خرجت عن نطاقها الضيق وتطورت بتأثير الحوادث السياسية إلى حركة أدبية ذات بال ، تناولت النثر والشعر بقدر ما سمحت به ظروف البلاد في تلك الحقبة المضطربة بالأحداث ، المليئة بعوامل الانقسام - فقد ارتقت الكتابة الانشائية نوعاً ما منذ انشاء « دواوين الرسائل » وقيام بعض مشاهير الكتاب على أمرها . كان لهذا الزمن شعر قليل في مناسبات مختلفة ، نجده متفرقاً في كتب التاريخ منسوباً إلى قائله . ويصعب أن نستخرج من الشعر القليل المنسوب إلى هذا العصر حكماً قاطعاً على قيمة الآداب الشعرية ،

وإن كنا نستطيع في كثير من السهولة أن نتعرف الأغراض التي قيلت فيها تلك الأشعار. وفي بحث كهذا — لا يهمننا كثيراً أن نحكم على قيمة هذه الآداب من الناحية الفنية ، بقدر ما يهمننا أن نستخلص منها ما يؤيد النظرية التي نريد أن نسوقها في تطور الآداب نحو القومية .

ونحن إذا تتبعنا أسماء الشعراء الذين قرضوا الشعر في هذا العصر العربي الأول ، هالتنا كثرة أسمائهم ، دون أن يكون للواحد منهم من الانتاج الشعري ما يستحق ذلك التخليد الذي ظفر به . وأن المامة سريعة بهذه الأشعار المتفرقة في كتب الأدب والتاريخ ، لتظهرنا على موضوعات الشعر في هذا العصر ، وهي في مجموعها لا تخرج عن الأغراض الآتية :

- (١) شعر في التنافر بالعصية على مألوف العرب الجاهليين .
- (٢) شعر قيل في استعراب القبط .
- (٣) شعر قيل في الهجاء والمدح والتناذب بالأصل ، لا يعدو أن يكون صورة جاهلية .
- (٤) شعر سياسى قيل في سقوط الطولونيين والترحم على أيامهم .

* * *

ومما يسترعى النظر أنه لم يصلنا إلا اليسير من شعر الشعراء المقيمين ، في حين وصلتنا قصائد كاملة من شعر الشعراء الوافدين على هذه الديار .

وكان أكثر وفود الشعراء على الأمير الأموى « عبدالعزيز بن مروان » وإلى مصر ، وبتعصيد منه ، لأنه كان يحب الشعر والشعراء ، ويجزل العطاء

لكل من وفد عليه منهم ، وكان لهؤلاء الشعراء الوافدين أعظم الأثر في ازدهار الحياة الأدبية في مصر ، في وقت لم يتسن للعرب المتمصرين فيه أن يتفرغوا للأدب ، لأن ظروف الحياة في ذلك العصر المضطرب ، لم تكن لتسمح بشيء من هذا — وهي لم تسمح به قط إلا بعد أن هدأت ثورات القبط على الإدارة العربية ، وسكنت الفتن بين البطون المختلفة ، واستعرب المصريون الأصليون وتمصر الأعراب .

ومن هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان « أيمن بن خريم الأسدي » ، و « نصيب بن رباح » ، و « عبد الله بن الحجاج » ، و « كثير عزة » ، وكلهم مدحوا الأمير الأموي ، وأثيبوا على ذلك المديح وأجزل لهم العطاء فيه .

ومن قول « نصيب بن رباح » في عبد العزيز بن مروان ، يمتدح جوده وعطاءه :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلك آنس بالمعتفين من الأم بالابنة الزائرة
وكفك حين ترى السائل بين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنى الشاء بكل محبرة (١) سائرة

ومن الشعراء المجيدين الذين وفدوا على مصر « ابن قيس الرقيات » ، الذى مدح عبد العزيز بن مروان ، ومن قوله في عودة الأمير من الاسكندرية إلى حلوان مقر حكمه :

(١) أى بكل قصيدة محبرة تسير في البلاد وتنقشر .

غدوا من مدزج الكسريو ن (١) حيث سفينهم حزق (٢)
 فلما أن علون النيل والرايات تحتفـق
 رأيت الجوهر الحكمى والدياج يأتلق
 سفائن غير مقرفة إلى حلوان تستبق
 محل من محل به لذيذ عيشه ، غدق
 يحل به « ابن ليلي » والندی والحلم والصـدق

ومن مدحوا « ابن مروان » من الوافدين ، الشاعر « الحزين الكنانى »
 الذى يقول فيه :-

الله يعلم أن قد جبتُ ذا يَمَنٍ ثم العراقين ، لا يثيننى السأمُ
 ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذاك تسرى على الاهوال بي القدم
 قالوا دمشق ينبئك الخبير بها ثم انت مصر فثم النائل (٣) العمم (٤)
 لما وقفت عليها فى الجموع ضحى وقد تعرّضت الحجاب والخدم
 حيثه بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدحم
 فى كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع فى عرينه شمم

واشتد الخلاف فى مصر بين الزبيريين والامويين، وكان لهذه الفتنة شعرها
 الخاص - وفيها يقول « عبد الرحمن بن الحكم » المروانى متفاخراً :-
 ألا هل أتاها على نأياها نبأ التراويح والخذق
 بلغنا بفيلق يغشى الظراب بعين السمسو لمن يرتقى

(١) جزء من اسكندرية البطالسة والرومان (٢) الحزق : الجماعة من الناس وغيرهم - والوصف
 هنا للسفين (٣) النائل - التوال والعطاء (٤) العمم - الكثير الذى يعم

وسدت معافر أفق البلاد^(١) بمرد جيش لها مبرق
ونادى الحكمة ألا فابرزوا ختام! حتى! — ولا نلتقى

كانت مصر طوال حكم الولاة الامويين والعباسيين مسرحاً للاضطراب يحيى من اشتداد الخلاف بين العلويين والامويين تارة، وبين الزبيريين والامويين تارة أخرى، وبين العباسيين والامويين في أعقاب سقوط الدولة الأموية وقتل مروان بن محمد، ولم يكن ذلك الاضطراب إلا صدى لتلك الحوادث الجسام التي كانت تجري في مقر الدولة — وكان لذلك أثره على الحركة الادبية اجمالاً، كما كان للفتن المحلية بين القبائل العربية النازلة في مصر، أو بين المصريين وحكامهم من العرب، نفس الاثر في الشعر، فهذا شعر لسعيد بن عفيرة في موسى ابن مصعب يشيد فيه بانتصار أهل الخوف (من العرب) عليه، ننقله عن كتاب الولاة للكندي: —

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم	وكانت سيوف لا تدين لمُتَرَفٍ
فما برحت به تعود وتبتدى	إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى	بمصر من الدنيا سلباً بنف
ولكن أهل الخوف لله فيهم	ذخائر اذ لا ينغد الدهر تعرف

وكثيراً ما كان يتمتع أهل الخوف عن تأدية ما يفرض عليهم من الخراج، ويشيرون، كما حدث في ولاية الحسين بن جميل (١٩١ هـ) وخلافة الرشيد، الذي بعث إلى مصر بالقائد «يحيى بن معاذ» الذي تمكن من القضاء على حركة الحوفاين، وأعاد الطمأنينة إلى ديار مصر، وفي مدحه يقول أبو عثمان السكري، مخاطباً قبيلة قيس النازلة في جهة بلبيس: —

يا قيس عيلان انى ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
انى أحذرکم ، يحى ، وصولته فما رأيت له تقيا إذا غضبا

ومن أعظم الثورات التى شاهدها العصر العباسى وأكثرها خطراً ثورة
« الجروى » ، عبد العزيز بن الوزير « صاحب الشرطة » (١٩٨ هـ) على والى
العباسى « المطلب الخزاعى » ، وفيها اتحد الجروى مع « السرى بن الحسك »
واتفقت كلمتهما معاً على محاربة « المطلب الخزاعى » ، حتى إذا أجلىاه عن مصر
كان أمرها قسمة بينهما — على أن شيئاً من ذلك لم يتم فعلاً ، إذ استقل السرى
بالبلاذ بعد هزيمة الخزاعى دون أن يشترك معه « الجروى » ، فى أمر من
أمرها . وقد حفز ذلك الشاعر « سعيد بن عفير » إلى لوم الجروى بقوله : —

ألا من مبلغ الجروى عني مغلغلة يعاتب أو يلوم
أقت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والشتموم
وصلت بهم فما وهنت قواهم وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين جلسوا عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني أتك بصنو نحس لا يقيم

واشتدت الفتن فى خلافة المأمون وحضر الخليفة لقمعها ، وجعل أمر
مصر قسمة بين الجروى والسرى ، ولكن لم تلبث الفتنة أن عادت على
أشدها من جديد بنقض ما عقده المأمون بينهما من عهد ، واقتتل الرجلان
وهزم الجروى ، وفر أمام عدوه — وفى ذلك يقول « المفضل الطائى » :

ألا هل أتى العراقيين وقعة لنا بحجى (بلقين) شيب الولائد
وما كان منا قتلهم عن جهالة خطباء ولكنا قتلناهم عمدا

.

سنهـدى إلى المأمون منا نصائحاً نضمناها إلى الصحائف والبُرُدا

وفي هرب الجروى يقول « سعيد بن عفير » : —

ألا يا عليّ بن عبد العزيز إلى أين صرت تريد الفرار

فلمست بأول من كاده عدوٌّ فكبر عليه اعتكاراً

ومن تلك الفتن الشعواء فتنة قام بها « حمية الأموى » في خلافة المهدي ،

أعلن فيها خروجه عن طاعة الخليفة العباسى . وجهدت الدولة في محاربته ،

فأرسلت إليه الجيوش بقيادة « الفضل بن صالح » — وفي ذلك يقول القائل

مشيراً إلى يوم (فاو) ويوم (بويط) من قرى مصر ، بقوله : —

كيوم لنا لا زلتُ أذكر يومنا بفاو ويوم في بويط عصبص

ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه على فئة الفضل بن صالح تنعب

وهكذا لم تخل الحياة العربية في مصر في العصر العربى الأول من أيام

كأيام العرب الجاهليين — فهذا يوم « بويط » ، ويوم « فاو » ، ويوم « جناح

والزعفران » (١) تذكّرنا بأيام العرب المشهورة في الجاهلية ، وتعيد إلى

الذهن صورة قوية من صورها .

قال شعراء مصر في يوم « جناح والزعفران » شعراً يشبه ما قيل في

يوم « داحس والغبراء » ، وظهرت فيما قالوا آثار العصبية الجاهلية واضحة (٢)

فقد تناوب « الخولاني » و « ابن بجيرة » شعراً ، ودافع كل منهما عن صاحبه

دفاعاً فيه كثير من اتهام القضاة بالضلالة والكذب والزندقة (٣) .

(١) فرسارهان — انظر قصة (جناح والزعفران) في كتاب القضاة للسكندى .

(٢) راجع ما قيل في ذلك من الأشعار في كتاب القضاة والولاية للسكندى .

(٣) راجع ما قيل في القاضى (العمرى) وفي القاضى (البكرى) في كتاب القضاة .

وقد أدى تهالك القبط على ادعاء العروبة، ورغبتهم في نسيان أصلهم
المصرى والتسجيل لهم كأعراب، إلى أن نشأت القضية الكبرى المعروفة
بقضية «الحرس»، وفيها ادعى فريق من القبط أنهم من حوتكة من قضاة،
وطلب إلى القاضى «العُمَرى» أن يسجل لهم نسباً عربياً، فسجل لهم لقاء
مال جمعوه له. وطعن في صحة ذلك النسب فريق من عرب مصر، وثاروا
وهجوا القاضى العمرى ورموه بأقذع السباب. وفي ذلك يقول الشاعر
«يحيى الخولانى» قولته المشهورة: —

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك^(١) وأبوهم من القبط عليج^(٢) حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف^(٣) من الخوف فادعوا بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا^(٤)
ألا لعن الرحمن من كان راضياً بهم رغماً ما دامت الشمس تغرب

وهما «المعلى بن المعلى الطائى» القاضى العمرى هجاء مرأاً لتجاوزته حدود
الحق، وتسجيله للقبط نسباً عربياً بقوله: —

تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد الحقهم عرباً فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيد صدور قوم عن مساتك^(٤)
وكاننى بمنية! تسعى اليك بكف فاتك

(١) الرعلشج: الرجل الضخم القوى من كفتار العجم

(٢) الأجلاف جمع جلف وهو الرجل الغليظ الجافى.

(٣) أجلبوا: أحدثوا جلبة وضوضاء وشغباً.

(٤) مساتك: أصابها مساءتك أى سيئاتك.

أفقرته من ماله بقضية إذ لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك (١)

هذا الشعر الذى نسوقه من القرنين الأول والثانى الهجريين فى المدح والهجاء والتنافر ليس شعراً مصرياً بحال ، إذ ليس بينه وبين البيئة المصرية اتصال مباشر ، فهو لا يأخذ عنها ولا ينعكس عليها ، شأن كل أدب قومى ، وهو فى الحقيقة لا يعدو أن يكون شعراً عربياً كالشعر الذى كان يقال فى بلاد العرب ذاتها . ولا غرابة فقد كان هذا الشعر يمثل الحياة العربية فى مصر قبل العصر الطولونى أصدق التمثيل ، فهو صورة من صور المجتمع العربى الأول فى مصر ، بما عرف عنه من كثرة التنافر والتشاحن بين البطون ، والاعتزاز بعراقة الارومة العربية ، والترفع عن الاندماج فى الشعوب المحكومة مخافة اختلاط الأصل .

غير أن ذلك الدور من حياة الشعب لم يلبث أن انقضى بما اعتوره من شرور الفرقة ومضار التباعد ، وأدرك العرب حين حلت بهم النازلة الكبرى فى العصر العباسى ، أى بعد أن حرموا من ديوان العطاء على يد المأمون ، أنه لا سبيل إلى بقائهم منعزلين عن أهل البلاد ؛ وقربت الشقة بين القبط وبين العرب بسبب كثرة اقبال القبط على الاسلام وذهابهم فى الاستعراب إلى أبعد حدوده .

وانتهت مرحلة الانتقال فى حياة الشعب المصرى باندماج القبط الذين اعتنقوا الاسلام فى العرب اندماجاً تنوسيت فيه الارومات والأصول

وتساوى فيه العربى بالمصرى، وغدت للعنصرين هموم مشتركة، وآمال وغايات واحدة.

ولقد أتى ذلك الاندماج بخير ما كان يرجى من نتائجه، فتكونت به أمة مصرية اسلامية لا تنظر إلى الوراء وإنما تدأب على النظر إلى الأمام راغبة فى احتلال المكانة اللائقة بها بين الأمم الاسلامية القوية.

وانتهى ذلك النضال العنصرى الطويل بنضوج سياسى أدركته البلاد فى العصر الطولونى، لم تلبث ان ظهرت آثاره جليلة فى كل مظهر من مظاهر الحياة المصرية.

وكان من آثار ذلك فى الأدب اختفاء تلك النعرة العنصرية التى وسمت القرنين الأولين من الهجرة بطولهما بميسم جاهلى — إذ أخذت تظهر فى الأدب تدريجاً روح جديدة نلحظها فى ظهور شعر سياسى قوى يعتد بالحكام والجيش والدولة والمنشآت، هو صورة صادقة لمصر الجديدة التى تم نضوجها فى خلال قرنين ونصف القرن تقريباً.

كان أول تعبير عن هذه الحياة الجديدة ذلك الشعر السياسى الذى أكثر الشعراء من قوله فى مدح الطولونيين والاشادة بما أثرهم كأسرة نزعت إلى الاستقلال عن الخلافة، ونجحت فى ذلك نجاحها المعروف. تأمل دلالة ذلك الشعر على تعلق الشعب بحكم هذه الأسرة التى اعتزت به وحاربت من أجله وأنشأت له ملكاً مستقلاً. أنظر إلى الشاعر « قعدان بن عمرو »، يزهو بجيش ابن طولون فيقول :

طال الهدى بابل طولون الأمير كما
 يزهو به الدين عن دين واسلام
 قاد الجيوش من القساطر يقدمها
 منه على الهول ماض غير محجام
 في جحفل للنيا في مقابنه
 مكامن بين رايات وأعلام
 يسمو به من بني سام غطارفة
 بيض وسود (كرام) من بني حام
 حاط الخلافة والدنيا خليفتنا
 بصارم من سيوف الله صمصام

ثم أنظر إلى هذا الشعر الذى يصور مصر «دولة ذات سيادة خارجية»
 أحسن التصوير وأزهاه : -

أنت الأمير على الشآم وغيرها والرتقين وما حواه المشرق
 واليك مصر وبرقة وحجازها كل اليك فؤاده متشوق

ثم أنظر إلى قول «اسماعيل بن أبى هاشم» فى فناء الدولة :
 قف وقفة ببناء باب الساج والقصر ذى الشرفات والأبراج
 وربع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيما ازعاج
 كانوا مصاييحاً لدى ظلم الدجى يسرى بها السارون فى الأدلاج

كانوا ليوناً لا يرام حجامُ في كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علماً بكل ثنية وفجأج (١)

وقول « سعيد القاص » الشاعر المتفجع على زوال ملك الطولونيين :-
جرى دمه بين سحر إلى تسحر وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
ولم يجر حتى أسلته يد الصبر يبيت على جمر ويضنح على جمر
وتتابع أحداث تحيِّفن صبره وندر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدها ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها بفقد بنى طولون والأنجم الزهر

.....
وكان أبو العباس احمد ماجداً جميل الحيا لا يبيت على وتر
كان ليالى الدهر كانت لحسنا واشراقها فى عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون همه محلقة بين السماكين والغفر (٢)
فان كنت تبغى شاهداً ذا عدالة يخبر عنه بالجلي من الامر
فبالجبل الغربى ، خطة يشكر له مسجد يغنى عن المناطق الهذر (٣)

ثم تأمل قول « محمد بن طشويه » فى (الميدان) الذى بناه ابن طولون (٤) :-
من لم ير الهدم للميدان لم يره تبارك الله ! ما اعلاه وأقدره !
لو ان عين الذى أنشأه تبصره والحادثات تعاديه ، لا كبره

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ - ص ١٤٢ - ١٤٣

(٢) الغفر : ثلاثة أنجم صفار ينزلها القمر ، وهى من الميزان

(٣) النجوم الزاهرة : الجز الثالث ص ١٤١ - ١٤٢

(٤) الكندى - القضاة والولاة : ص ٣٣٣

وأين من كان يحميه ويحرسه من كل ليث يهاب الموت منظره
صاح الزمان بمن فيه فقر قهم وحط ريب البلى فيه فدعثره
.....
أين ابن طولون بانيه وساكته أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوبى لمن خصه رشده فذكره (١)

وقول أحمد بن اسحق ، فيه أيضاً : —

وكان الميدان ثكلى أصيبت بحبيب صباح ليلة عرس
تغشى الرياح منه محلاً (٢) كان للصون في ستور الدمقس

— وقول القائل فيهم :

آل طولون كنتم زينة الأار ض فأخى الجديد أهدام (٣) لبس

— وقول ابن أبي هاشم ، متفجعاً يبكى ديار بني طولون :

يا منزلاً لبني طولون قد دثرا سقاك صوب العوادي القطر والمطرا
يا منزلاً صرت أجفوه وأجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبراً (٤)

(١) النجوم الزاهرة - الجزء الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

(٢) أصلها محلاً بمعنى منبع (٣) الأهدام جمع هدم وهو الخلق من الثياب

(٤) لجيم الزاهرة - الجزء الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

وهكذا درج الشعر في العصر الطولوني من طوره العربي البحت ، وبعد عن أغراضه البدائية، إلى طور آخر جديد، فغدا شعراً قومياً مصرياً يُترجم عن أحوال البلاد السياسية ، ويشيد بعظمة الدولة التي أنشأها الطولونيون؛ وقصارى ما تطمع فيه الدولة، أن تكون من القدرة على تحقيق المثل العليا، والعدل، والعمل على رفاهية الأهلين ، بحيث يتعلق الناس بها ويأسفون على ضياع ملكها.

وخير ما يمثل شعر هذا العصر ، شعر « سعيد القاص » فهو جيّد اللفظ واضح المعنى ، ورائيته المشهورة تلخيص طيب لتاريخ الدولة الطولونية ، واشادة بمآثرها في الحياة العامة ، فهو يذكر بنى طولون بخير ما يكون الذكر ، ويتأسف على فقدهم بأقوى ما يكون الأسف ، ثم هو يذكر مخلفاتهم مفاخرأ معتزاً . وهذا قوله في « المسجد الكبير » : —

فبالجبل الغربى خطّة بشكر له مسجد يُغنى عن المنطق الهذّر
.....

بناه بآجر وساج وعَرَ عَرٍ وبالمرمر المسنون والحص والصخر
بَعِيدُ مَدَى الْأَقْطَارِ ، سَامِ بِنَاوُهُ وَثِيقُ الْمَبَانِي ، مِنْ عَقُودٍ مِنْ جُدُرٍ
رَقِيقُ النِّسِيمِ ، طِيبُ الْعَرَفِ وَالنَّشْرِ فَمَسِجِدُ الرِّحَابِ يَحْسُرُ الطَّرْفَ دُونَهُ

وهو القائل في مسجد « التنور » : —

وتشور فرعون الذى فوق قُلْبَةٍ عَلَى شَاهِقٍ عَالٍ ، عَلَى جَبَلٍ وَعَرٍ
بَنَى مَسْجِداً فِيهِ يَرُوقُ بِنَاوُهُ وَيَهْدِي بِهِ فِي اللَّيْلِ ، إِنْ ضَلَّ مِنْ يَسْرَى
تَخَالُ سَنَا قَنْدِيلِهِ وَضِيَاءُهُ سَهِيلاً — إِذَا مَا لَاحَ فِي اللَّيْلِ لِلْسَفَرِ

وهو يقول في السقاية والقناطر : —

وعَيْنُ مُعِينِ الشَّرْبِ عَيْنُ زَكِيَّةٌ وغير أَجَاجٍ للرَّوَاةِ وللطُّهْرِ
كَأَنَّ وَفودَ النَّيْلِ فِي جَنَابَتِهَا تروحُ وتغدُو بين مدٍّ إلى جَزَرٍ
فَأَرْقَاهَا (١) مُسْتَنْبَطًا لِمَعِينِهَا من الأرض من بطن عميق إلى ظَهْرِ
بِنَاءٍ لَوْ أَنَّ الْجَنَاجِرَ جَاءَتْ بِمِثْلِهِ لَقِيلَ لَقَدْ جَاءَتْ بِمُسْتَفْظَعٍ نَكْرٍ
يَمْرُ عَلَى أَرْضِ الْمَعَافِرِ كُلِّهَا وشعبانَ والأخْمُورِ والحَيِّ مَنْ بَشَرٍ
قَبَائِلُ لَا نَوَّهَ السَّحَابُ يَمْدُهَا ولا النَّيْلُ يروِيها ولا جَدُولُ يَجْرِي

— وهو يقول في المارستان الكبير :

ولا تَنَسَ مَارِسَاتِهِ وَاتَّسَاعَهُ وتوسعةَ الأَرْزَاقِ لِلْحَوْلِ وَالشَّهْرِ
وَمَا فِيهِ مِنْ قُوَّامِهِ وَكُفَّاتِهِ ورفقهمُ بِالْمُعْتَفِينَ ذَوِي الْفَقْرِ
فَلَمِيتِ الْمَقْبُورِ حَسَنُ جِهَازِهِ وللحَيِّ رَفَقٌ فِي عِلَاجٍ وَفِي جَبْرِ

— ويقول في حصن جزيرة الروضة :

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
تري أثراً لم يبق من يستطيعه من النَّاسِ فِي بَدْوِ الْبِلَادِ وَلَا حَضَرٍ
مَآثِرُ لَا تَبْلَى وَإِنْ بَادَ رَبُّهَا ومجد يودى وارثه إلى الفخر

— وهو القائل في بكاء الدولة :

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله لفقدهم فليبك حزنًا على مصر
ليبك بني طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهرٍ وبورك من عصر

أفهل رأيت ترجماناً أفصح من هذا تعبيراً عن مجد هذه الدولة ، وتعلق
الناس بها ، وأسفهم على زوالها ؟

(١) في القاموس أرقاً بمعنى أصلح

والناظر في شعر «سعيد القاص» (١)، يرى نضوجاً غير مألوف في شعر القرنين الأولين للهجرة، ويرى فيه فوق ذلك تمجيداً واشادة بدولة، بعد أن كان الشعر فيما مضى يقال في شخص بذاته — يمدحه أو يهجو، أو في فتنة من الفتن، أو في التنافر والتناذب بين العشائر.

وغداة سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر إلى الحكم العباسي، نرى محاولة قوية ترمي إلى العودة إلى حكم الطولونيين — إذ يقوم «ابن الخننجي» أحد أشياعهم، بمهاجمة مصر من الشام باسم «ابراهيم بن خمارويه» الطولوني، ويستولى على القسطنطين، وينتصر على «عيسى النوشري»، وإلى مصر — فيمدحه «اسماعيل بن هاشم»، إذ يرى فيه بطلاً مصرياً مناهضاً للعباسيين، ومخلصاً لمصر من أحوالهم بقوله:

أَمِيرُنا يا ابن البهاليلُ الغُرَرُ شفيت من عدونا أبي الأغرِ
صدورُنا وقيت من كل حذرٍ إذ جاء في الشوك إلينا والشجرُ
في جحفل كموج بحرٍ قد زخرٍ يتبعه أهلُ البوادي والحضرِ

صبرت إذ لاقيته (٢)، وما صبرُ فر في أسرع من لمح البصرِ
يقطر منه بوله قطرَ المطرِ أحدثَ فوق سرجه وما شعُرُ
(شفيتنا من تركيهم مع الخزرِ) ثم عفا أميرُنا لَمَّا قَدَرَ (٣)

(١) هو سعيد «القاضي» في بعض الروايات.

(٢) لاقيت العدو

(٣) الكندي - القضاء والولاية: ص ٢٥٩

وهذا الشعر فوق دلالة على تعلق الناس بأهداب الطولونيين، فيه من التعبير عن شعور الكراهية للأجنبي من الترك والخزر ما فيه، وفيه فوق كل ذلك — نزوع إلى الاستقلال شديد.

وفي يقول احمد بن محمد الحبشي في «ابن الخننجي» عندما انتصر على عيسى النوشري ممثل العباسيين:

غضبت لمصرَ وما نالها	وشردت بالخوف من غالتها
تلافيها بعد إدارها	وأقبلت تطلب اقبالها
وكادت تُؤوّه شوقاً إليك	وتظهر بالشوق بلباها
.....	
لقد فرج الله كرب النفوس	وبلغها فيك آمالها
ولمّا رأيناك في مصرنا	منحنا الأمانة اجلاها

ونحن نترك الحكم على قيمة الآداب الطولونية لنقاد الأدب، غير أنه يجدر بنا أن نقول على كل حال، أن العصر الطولوني شاهد نضوجاً أدبياً لا بأس به، يهمننا من أمره علاقته بأحوال البلاد السياسية، أكثر مما تهمننا قيمته الفنية ذاتها.

حرص الطولونيون والاختشيديون من بعدهم على منافسة الخلافة ومجاراتها في كثير من مظاهرها - وكأنا وجد هؤلاء وهؤلاء في بذخ بغداد واستهتارها ومجونها شيئاً يحسن بهم أن يقلدوه، فأقبلوا على المجون واللهو وأخذوا منها بنصيب، ونبع من الشعراء الماجنين ومن الشعراء المتفكرين

كثيرون؛ وكان «أبو هريرة بن أبي العصام» من شعراء بني الاخشيد أكثر الشعراء مجوناً وعبثاً — وهو القائل:

كم لي «بدير القصير» من قصفٍ من كل ذي صبوةٍ وذى ظرفٍ
لهوتٍ فيه بشادنٍ غنيجٍ تقصرُ عنه بدائعُ الوصفِ
وغيرُ هذا الشاعر آخرون قالوا شعراً في المجانة منهم «قاضي البقر»
واحمد بن أبي العصام وعبد الله بن محمد وابن البصري، وهم من شعراء
العصر الاخشيدى (١).

وقد كانت حياة الطولونيين والاكشيديين بما فيها من مباحج ومغريات
تجتذب الشعراء من كافة أنحاء العالم الاسلامي، فوجد على مصر في حكم
الأكشيديين أبو الطيب «المتنبي» الذي خلد اسم «كافور الاخشيد» في
مدحه وهجائه معاً، كما وفد عليها كثير غيرُه من الشعراء.

المظهر الأدبي - ٤

استطراء...

الأدب يخطو بطينا نحو القومية - السبب في ذلك - الأدب الفاطمي أدب دعاية - وفود الشعراء على مصر لمدهح الخلفاء - الاغراق في المدح - شعر ونثر قيل في الأعياد - نواة لأدب قومي - أثر الأزهر ودور العلم الفاطمية في نشر الشيعة - الأيوبيون يحاربون المذهب الشيعي - المدارس السنية الأيوبية - الاشادة بفضل صلاح الدين في الشعر - مصر موئل العربية وكوزها في العصر المملوكي - النصايف - لغة الأدب ولغة الشعر - أثر الغزو التركي في تدهور العربية - عودة العربية إلى القوة منذ عهد محمد علي الكبير - أثر الأزهر ودار العلوم والنهضة الأخيرة .

وفيما يلي وصل سريع للحقائق :

١ — لم يَخْطُ الأدب نحو القومية بنفس الخطى الواسعة التي خطتها البلاد في شتى النواحي — ومرجع ذلك فيما نظن ، رغبةُ المصريين أنفسهم في الاستعراب ، تلك الرغبة التي أَلَحَّتْ حتى ذهبت بأصحابها إلى نسيان أصلهم المصري وانتحال العروبة — وظلَّت لغة الفاتحين وثقافتهم وآدابهم هوية الراغبين في الاستعراب زمنا ؛ « وتَأَقَّلَت » الأجيال ، واشتركت الأعراف والطبائع — ولَسَكُنْ بَقِيَتْ « العربية » عربية ، ولا غرابة — إذ لم يكن إلى غير ذلك من سبيل : فالعربية لغة القرآن ولغة الحديث ، ولغة الشروح والتفاسير ، ولهذا بقي الأدب عربيا بحتا — بقي عربيا بمعنى أنه ظل يمجّد عادات الأعراب وطبائعهم ويخلد أيامهم ، ويترجم عن جاهليتهم طوال القرنين الأولين من الهجرة في مصر — ولهذا نجد أنه في الوقت الذي تم فيه

تمتصّر الأعراب واستعراب المصريين، وتكون الأمة الجديدة، بقى الأدب عربياً أبعد ما يكون فى طوره الأول عن القومية — وان كان العصر الطولونى قد فاز من الأدب القومى بلون من ألوانه هو الشعر السياسى — ذلك الشعر الذى مجّد الطولونيين وشاد بذكرهم، واعتدّ بهم كأسرة جنحت الى الاستقلال .

فليس عجيباً إذن أن ينصرم القرن الثالث ، دون أن تظفر البلاد بأدب ينم عن القومية فى صورة قوية . وساعدت الدولة الفاطمية — وكانت طول حياتها دولة ذاتهم خاص — على بعد الأدب عن الاغراض القومية . على أن الزمن لم يلبث أن مكن لها فى هذه الديار ، واصبح الفاطميون فى مصر قوة سياسية مناوئة أشد المناوأة للخلافة العباسية ، وتجلت علائم استقلالهم بهذه البلاد ، فكان ذلك بدء احساس الأدباء والشعراء من الوافدين أو المقيمين بالروابط التى غدت تربط القوم بالوطن ، ومذ حدث ذلك بدأ الشعر يعبر عن القومية بعض التعبير — الا أن الكثرة من شعر هذا العصر انما قيلت فى مدح الخلفاء وتمجيدهم، دون غيرهما من الاغراض . والحق أن الفاطميين لم يعنوا بالأدب لذاته . — بقدر اتخذه وسيلة من وسائل الدعاية للمذهب الشيعى . ولقد أكثر الشعراء الشيعة من مدح الخلفاء طلباً لعطائهم ، واقتنى أثرهم فى ذلك الشعراء السنيون .

واتسم الأدب الشعرى بوجه عام فى هذا العصر بالغلو والاغراق فى المبالغة، حتى دنا من الإلحاد — ولما كانت سياسة الفاطميين ترمى الى منافسة الخلافة العباسية، فقد كثر تطلّعهم الى المجيدين من الشعراء الذين يستطيعون

بهم أن يفاخروا شعراء المشرق . وذهب بعض الشعراء من السنين ذاتهم الى مدى بعيد في التشيع ، رغبة في التكسب بالشعر — وأكثر الشاعر « ابن هانيء » وكان سذنبيا ، من مدح « المعز » الفاطمي — والمتصفح لديوانه يجد الشاعر قد خلع على المعز من صفات الالهوية والنبوة ما تعاف الاذن أن تستمع اليه . ومن شعر « ابن هانيء » في انتصار جيوش المعز على البيزنطيين في سوريا : —

يومٌ عريضٌ في الفخار طويلٌ	ما تنقضى غُررٌ له وحُجُولٌ
لو ابصرتك الرومُ يومئذٍ درت	أن الاله بما تشاءُ كفيل (١)
يأليت شعري عن مقاولهم اذا	سمعت بذلك عنك كيف تقول
وَدَتُوا وداداً أن ذلك لم يكن	صدقا وكل ثاكلٌ مثكولٌ
.....	
سلر هط منبويل ، وأنت غررته	في أى معركة ثوى منبويل

* * *

وكان الوزير « ابن كلثس » والخليفة « العزيز » يغدقان النعم على الشعراء المادحين ، ومن أشهرهم في عصر العزيز أبو عبد الله محمد « ابن أبي الجرع » الذي أكثر من مدح الخليفة ووزيره .

ولسنا في حاجة الى أن ننقل هنا شيئا كثيرا مما قال هؤلاء في مدح الخلفاء أو الوزراء أو القواد ، لان ذلك لا يهم في بحث كهذا ، ويكفى أن نذكر أن كثيرا من الشعراء زار مصر في العصر الفاطمي طمعا في العطاء . ولقد أدت سياسة اجزال العطاء مهمتها في اجتذاب كثير من الشعراء المجيدين ،

وصرفهم عن قول الشعر في الخلافة العباسية، وتوجههم نحو الخلافة الفاطمية يمدحونها. وساعد على زيادة وفود الشعراء من بغداد الى القاهرة تضعف الخلافة العباسية، وزوال ما كان يصدر عن بيت الخلافة من نعم على الشعراء. ومن اشهر الشعراء الذين رحلوا عن بغداد الشاعر «عبد الوهاب بن نصر المالكي» الذي يتأسف على فراق العاصمة العراقية بقوله : —

سلام على بغداد من كل منزل وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها وإني بشطئي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ برحبها ولم تكن الارزاق فيها تساعف

ومن وفدوا على مصر في هذا العصر الشاعر أبو الحسن «علي بن ابراهيم» الذي مدح الافضل بقصيدة مطلعها : —

فمكة مصر والحجيج وفودة ويمناه ركن البيت والنيل زمزم

وزارها كذلك «ابن البوين» وافدا من معرة النعمان، وقد تمتع هذا الشاعر بعطف الافضل الذي قرّبه ولقبه «بأمين الملك» — يقول «ابن البوين» في الافضل أمير الجيوش ابن بدر الجمالي : —

يامن تنافس فيه السمع والبصر كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكّم في الارواح فاحتكت ألا يحكم فيها بعده بشر

وكما وفد الشعراء على بلاط الفاطميين من المشرق ، كذلك وفد عليه شعراء
من المغاربة منهم من مدح الأمر والحافظ .

ومن الشعراء الذين أكثروا من مدح الخلفاء الفاطميين « على بن عبادة »
من شعراء الاسكندرية — وكان يخص الخليفة « الحافظ » بمدائحه .

ويعتبر الشاعر « عمارة اليمنى » الذى أقام بمصر زمنا ، من أشهر الشعراء
الذين مدحوا الفاطميين . وله فى مدحهم ميمية رائعة مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم

وأنت ترى أن معظم الشعر قيل فى مدح الخلفاء ؛ ومنه جانب قيل فى
تمجيد الدولة ، وهكذا جاء الأدب الفاطمى فى مجموعه بعيدا عن القومية
— وما كان لدولة ذات هم خاص كالـدولة الفاطمية ، أن تُعنى بالصلة بين
الأدب والبيئة ، أو بين الأدب والقومية ، فقد كان قصارى هم هذه الدولة
أن تتخذ من مصر موطناً لبث الدعوة الشيعية ، ومركزاً للعمل على تحطيم
الخلافة العباسية . على أننا لا نستطيع على كل حال أن نغفل نصيب هذه
الدولة من الجهاد فى سبيل مصر ، ورفعة شأنها وتوسيع رقعتها — فقد كانت
لها فى هذا المضمار وقفات كريمة موفقة مع الروم البيزنطيين .

ومن الشعر ما قيل فى هذا العصر فيما استحدثته هذه الدولة من الأعياد
الوطنية الدينية وغير الدينية ، كمولد النبى ويوم عاشوراء والاحتفال بوفاء
النيل وغير ذلك ، لعله الشعر الذى يعبر بعض التعبير عن القومية . ومن
ذلك قول « كافى الدولة » مهنتا أحد الخلفاء بوفاء النيل :—

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد لليل ، أم لك يابن بنت محمد
 أم لاجتماعكما معا في موطن وافيتما فيه لأصدق موعيد
 هذا يفي ويعود ينقص تارة وتسد أنت النقص إن لم يزد

ومن الشعر ما قيل صراحة في اغراض قومية كقول « عمارة اليمنى ،
 في الهرم :

خليلي ما تحت السماء بذية ' تماثل في أتقانها هرمى مصر
 بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
 تنزه طرفى في بديع سنائها ولم يتنزه في المراد بها فكرى

ومن الأدباء من قال نثرا له قيمته الفنية ، ومن هؤلاء « ابن قادوس ،
 — وله من كلام كان يذاع على الناس في مناسبة وفاء النيل :
 « النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فأنها متفاضلة الأقدار والقيم ،
 فأولاها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بأدراك الغايات
 أحكامه ، نعمة يشترك في النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت
 والجماد ، وتلك النعمة هي النيل المصرى ، الذى تبرز به الأرض الجرز
 (المنبثة للزرع) فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان
 والبسابس (الأرض القفر) ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر
 واللجين والعقيان ، فسبحان من جعله سببا فى انشار الموات ، وتعالى
 من ضاعف به ضروب البركات ، ووفّر به مواد الأرزاق والاقوات .

والحق أن الفاطميين قد كسبوا للقاهرة مكانة علمية وأدبية سامت بها بغداد مقر الخلافة العباسية ، فقد انشأوا بها الأزهر وغيره من دور العلم والمكتبات والمراسد مما فاخرت به القاهرة بغداد عاصمة العباسيين . وليس يعيب بعض هذه المنشآت العلمية أنها قامت في الاصل لخدمة المذهب الشيعي ، فان ذلك لا ينقص من قيمتها ولا يحقر من شأنها ، ووجد التراث العلمي الاسلامي في مصر ملجأً أميناً وغداً الأزهر مع الزمن أعظم جامعات العلم في الشرق .

٢ — وكانت دولة الايوبيين دولة جهاد في سبيل الاسلام ونصرته ، واعلاء شأنه ، شغلها ظروف الدولة الخارجية والداخلية عن التفرغ للأدب والعلم — وعلى الرغم من ذلك كانت للأيوبيين جهود جبارة في القضاء على الشيعة ، فقد اقتلعوا بذورها بأنشاء المدارس السنية المعارضة لمذهب الشيعة . ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية والمدرسة السكاملية ، وكانت تدرس بهما المذاهب الى جانب الحديث والقرآن .

ويرجع الى الاسرة الأيوبية كثير من الفضل في الاحتفاظ بالتراث الاسلامي ووقايته من عدوان الصليبيين ، كما يرجع الى المماليك فضل حفظه من عبث التتار .

يقول نقيب الأشراف « احمد بن سعد » مهناً « صلاح الدين » بانتصاره في بيت المقدس ، وهزيمة الصليبيين :

أترى مناماً ما بعينى أبصيرُ القدس يُفتَحُ والفرنجة تُكسرُ

ومليكم في القيد مصفودٌ ولم يرَ قبلَ ذاكَ لهم مليكٌ يؤسّرُ
قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
وفي هذا الشعر من الاعتداد ببطل مصر والاسلام ما فيه .

ويقول « العباد الأصفهاني » في صلاح الدين :
شكا اليك بنو الاسلام يتنهمهم ففقت فيهم مقام الوالد الحذب
في كل دار من الافرنج نادية بما دهاهم فقد باتو على تدب

٣ — وقدّر لمصر في عهد سلاطين المماليك أن تكون المشابة
الآخيرة للعربية وكنوزها النفيسة ، فقد حمت الآداب والعلوم كما حمت
الفنون من عبث التتار والمغول الذين اشتد ضغطهم على آسيا الغربية وخرّبوا
معظم مدنها العامرة ، ودهموا بغداد ودمروا كنوز العلم فيها ، وفر أمامهم
رجال الفنون والأدباء والشعراء واتخذوا من الشام ومصر وقاية لهم وأمناء .
وقف المماليك سداً منيعاً في وجه هؤلاء المغيرين ، وأنفذوا بذلك
الحضارة الإسلامية في مصر من عبث محقق ، وحمّوا الوافدين عليهم من
رجال العلم والآداب والفن ، على نحو ما حمت القسطنطينية كنوز العلم والعلماء
بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية .

وفي كنف هؤلاء السلاطين الأقوياء أتبح لكثير من المؤلفين والمصنفين
أن يضعوا خير ما أتبح المسلمون في التاريخ والآداب والفقه وعلوم اللغة .
وهاجر إلى مصر كثير من علماء الاندلس وأدبائها هرباً من ظلم
الاسبانيين بعد أفول نجم العرب هناك .

وفي هذا العصر ارتقت كتابة التدوين وجرت على أصول الاقيسة المنطقية، ونقلت عن الائمة وأكثر من الاستدلال بالادلة العقلية والنقلية. ومن أشهر أصحاب التصانيف في العصر المملوكي ابن خلدون والمقریزی وابن منظور وابن خلكان وابن حجر العسقلانی والسيوطي والنويري وأبو المحاسن والقلقشندي وابن مالك والشاطبي وغيرهم. وكان في تصانيف هؤلاء جلّ العوض عما لحق العربية من الخسائر على يد التتار. ويعتبر عصر المماليك بالنسبة للمصنفات والتأليف من أزهى عصور مصر الاسلامية وأزخرها بجمع شتات العلوم. وتعتبر مقدمة ابن خلدون وخطط المقریزی وتاريخ ابن خلكان أروع ما كتب في هذا العصر. وهي ابتكار وتجديد لم يسبق اليه مؤلف ألف في النواحي التي طرقها هؤلاء.

ولغة التأليف في هذا العصر قوية رصينة لا بأس بقوتها ورسالتها، وعلى الرغم من أن الحكماء أنفسهم كانوا لا يجيدون العربية، فإنهم كانوا حماة للعلم والادب ليس في ذلك شك. وفي كنفهم عاش عدد كبير من أجلّة العلماء والادباء يصنفون ويكتبون نثراً ونظماً.

ومن أشهر شعراء هذا العصر «ابن النبيه المصري»، المتوفى ٦١٩ هـ، ومن شعره: —

الناس للموت كحيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
وأنت ترى ما في معنى «ابن النبيه» من فلسفة وحكمة، وما في لفظه من رصانة وقوة.

ومنهم « ابن نباتة المصري » المتوفى ٧٦٨ للهجرة الذي يقول في الزهد :
 استغفر الله لا مالى ولا ولدى آسى عليه إذا ضم الثرى جسدي
 عفت الإقامة في الدنيا لو انشرحت حالى فكيف ! وما حظى سوى الفكر
 وقد صدت 'ولى تحت التراب جلا' أن التراب جلاء' لكل صدري

٤ — ومن الشعر ما قيل على طول هذا العصر في أغراض تمت
 إلى البيئة المصرية ومعالمها بسبب قوى .
 ومن ذلك قول الشيخ برهان الدين القيراطي :

روت لنا مصر عن فواكهها أخبار صدق صحيحة الخبر
 وكل ما صح من محاسنها أرويه عن خوخها عن « الزهرى »

وقول الشريف العقيلي في الفسطاط والمقطم : —
 أحن' إلى الفسطاط شوقاً واننى لادعو لها ألا يحل بها القَطَرُ
 تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ومنه قول « سعد الدين بن جباره » في الاهرام :
 لله أى غريبة وعجيبة فى صنعة الاهرام للألباب
 أخفت عن الاسماع قصة أهلها ونضت عن الابداع كل نقاب
 فكأنما هى كالخيام مقامة من غير ما عمد ولا أطناب

وقول الشيخ « صلاح الدين بن ابيك الصفدى » يتعشق مصر :

لم لا أهيـم بمصر وأرتضيها وأعشق
وما ترى العين أحلى من مائها إن تملـق

وقول الشيخ زين الدين عمر بن الوردى ، فى ديار مصر والنيل :
ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الانام فقابلها بتقيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل

وقول ابن سـلار ، فى الاشادة بمصر ونيلها : —

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر (١)

ومنه قول الشيخ عبد الله الشبراوى (١١٧٢هـ) فى التشوق إلى مصر :
أعد ذكر مصر أن قلبى مـولع بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها فقد ردت الامواج سائلته نهرا
بلادها مد السباح جناحه وأظهر فيها المجد آتته الكبرى

وفى أواخر عصر المماليك أدرك الضعف اللغة العربية وأصبحت إلى
العامة أقرب ، وانحطت لغة الادب وتفشت أغراضه ، وأدركه البوار التام
بفتح السلطان سليم العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ميلادية ، وحلول التركية محل العربية .

٣ — وفى العصر العثمانى وصلت العربية إلى الدرك الاسفل ،
بسبب حلول التركية محلها كلغة رسمية . وظهر ضعف العربية جلياً فى

التأليف . وكتابات « الجبرتي » ، خير شاهد على ما صارت اليه اللغة العربية قبيل الحملة الفرنسية من الضعف والركاكة .

* * *

٤ — وعادت العربية فقدر لها النهوض من جديد في عصر الاسرة المحمدية العلوية . وكان للأزهر بعض الفضل في احيائها . وفي عصر اسماعيل أنشئت « دار العلوم » ، وكان لانشائها أعظم الاثر في النهوض باللغة العربية وآدابها بعد سبات دام طويلا . وكان للثورة العرابية كما كان لحركات النهوض القومي في أوائل هذا القرن ، واحتدام الآراء في ميادين الاجتماع والسياسة والادب ، وقيام الحياة الدستورية ، أثره المحمود في اللغة .

وما ساعد على قوة النهضة الادبية في هذا العصر الاخير اتصال مصر باوروبا ، واقتباسها من آدابها ، وعناية كثير من المستشرقين بالدراسات الشرقية الاسلامية — وفي الحقبة الاخيرة بدأ فريق من المصريين حركة مباركة لاستئناف الدراسات الاسلامية ، مستعينين بطرق المستشرقين العلمية في البحث ، دون أن يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء المستشرقون من أخطاء سببها عدم تمكنهم من لغة الضاد .

انتهى البحث بعون الله

ملاحق :

الملحق الاول

في مصر وأهلها

نحت مصر بكلام نسبة العرب الى آدم ونوح ومحمد عليهم السلام ،
وبأقوال قيل انها جرت على السنة نقر من الصحابة والرواة ، أثبتنا كتاب
الأدب والتاريخ . وفيما يلي جانب مما ورد في حق مصر وسمايتها . وهو في
ذاته محتاج الى التفحص الشديد : يد أن ذلك لا يكاد يهنا في هذا الموضوع ، اذ
المقصود بإيراد هذا الكلام مجرد تصوير لما كان يدور في أذهان العرب عن
هذا البلد الطيب الذي فتح الله عليهم ، وعن أهله الذين رأى فيهم العرب ذوى
قربى . فعدوهم أخوالا وأصحابا .

١ — من كلام يرويه النويرى في « نهاية الأرب » منسوباً إلى آدم عليه
السلام ! : « ... لا خَلَّتْكَ يا مصر بركة ، ولا زال بك حفظة ،
ولا زال منك مُلكٌ وعزٌّ . يا أرض مصر : فيك الخبايا والكنوز ، ولك
البر والثروة ، سال نهرُك عسلاً ، كثير الله رزقك ، ودرّ ضرّ علك ،
وزكا نباتك ، وعظمت بركتك ، وخَصِبَتْ ، ولا زال فيك
يا مصر خَيْرٌ ما لم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى ، فاذا فعلت ذلك ،
عَدَاكَ شَرٌّ — ثم يَغُورُ خيرُك ،

٢ — ومن كلام منسوب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص : « لما قسم
نوح عليه السلام الأرض بين ولده ، جعل لحام مصر وسواحلها والغرب
وشاطئ النيل . فلما بلغ (بيصر) بن حام العريش قال : اللهم ان كانت هذه

هى الأرض التى وعدتْنَا على لسان نبيِّك نوح، وجعلتها لنا منزلا، فاصرف
عنا وبأها (وبأها)، وطيب لنا ثراها، واجمع ماها (ماءها)، وانبت
كلاها (كلأها)، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، انك على كل شىء قدير،
وانك لا تخلف الميعاد، — وجعلها يبصر لابنه مصر، وسماها به. (١)

ومن كلام منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
٣ — « انكم ستفتحون بلادا يذكرك فيها القيراطُ ، فاستوصوا
بأهلها خيرا، فان لأهلها نسباً (٢) وصهراً (٣) ، — وفى رواية أخرى :
« ستفتحون مصر — وهى أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها
خيرا، فان لهم ذمةٌ ورحما. (٤) ،

٤ — « الله الله فى قبط مصر، فانكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم
عدة. (٥) وفى رواية أخرى : « الله الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السود
السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا ،

٥ — « استوصوا بالآدم الجعد ، فستل رسول الله من الادم الجعد ؟
فقال « قبط مصر — فانهم أخوال وأصهار ، وهم أعوانكم على عدوكم
وأعوانكم على دينكم ، فقيل : كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله ؟
فقال : « يكفونكم أعمال الدنيا ، وتتفرغون للعبادة ، فالراضى بما يؤتى اليهم ،
كالفاعل بهم ، والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم كالمستنزه عنهم. (٦)

(١) التويرى — نهاية الأرب ج ١ ص ٢٤٧ الطبعة الأميرية .

(٢) المراد بالنسب « هاجر ، أم إسماعيل عليه السلام . وكان بعض ملوك مصر قد وهبها لزوجته « سارة » .

(٣) والمراد بالصهر « مارية القبطية ، أم إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم — القلقشندي :

صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٩

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ص ٥

(٥) و (٦) راجع ص ٦٥ من هذا البحث

٦ — « اذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندا كشيء، فذلك الجند خير أجناد الارض، فقيل — لم يارسول الله؟ — قال « لانهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة »

٧ — « مصر أطيب الأرضين ترابا، وعجمها أكرم العجم نصابا. » (٣)

٨ — وقال الكسائي : « النقباء ثلاثمائة ، والنجباء سبعون ، والبديلاء أربعون ، والاختيار سبعة ، والعُمد أربعة ، والغوث واحد ، فمسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الابدل الشام ، والاختيار سياحون في الارض ، والعمد في زوايا الارض ، ومسكن الغوث مكة . » (٢)

٩ — « ومن كلام منسوب إلى عبد الله بن عمر : قبط مصر أكرم الاعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة، وبقرش خاصة — ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا، فليَتنظر الى أرض مصر ، حين يخضر زرعها وتنور ثمارها . » (٤)

١٠ — وقال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ص ٧

(٣) القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٩

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ص ٧

١١ — ويقول الكندي : « جبلها مقدس ، ونيلها مبارك ، وبها الطور الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام . »

١٢ — ويروى « الجاحظ » في الروض المعطار ، « أن عيسى بن مريم عليه السلام ولد بها بكورة اهناس . » (١)

١٣ — ويقول المسعودي : وصف الحكماء مصر ، فقالوا : « ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء . »

(فاللؤلؤة البيضاء الوقت الذي يغطي فيه ماء النيل أرضها ، والمسكة السوداء الوقت الذي يغض فيه الماء وتنكشف الأرض فيبدو الطين ، والزمردة الخضراء زمان طلوع الزروع ، والسبيكة الحمراء وقت هيج الزرع واكتهاله .)

١٤ — ويقال في مصر : « لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سور ، لغنى أهلها بها عما سواها ، ولما احتاجوا إلى غيرها من البلاد . » (٢)

١٥ — وقال « ابن الأثير » في عجائب المخلوقات : « هي أقليم العجائب

(١) ولد المسيح في بيت لحم ، في فلسطين - ولكن القبط ذهبوا في وقت ما إلى أنه عليه السلام ولد في الطياتيد في صعيد مصر (راجع ص ٣٢) وهي دعوى يكذبها التاريخ - ومن أمثالها القول بولادته في كورة اهناس .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨١

ومعدن الغرائب ، كان أهلها أهل ملك عظيم ، وعز قديم ، وأقليمها أحسن الأقاليم منظرًا ، وأوسعها خيرًا ، وفيها من الكنوز العظيمة ، ما لا يدخله الاحصاء — حتى يقال ، ما فيها موضع إلا وفيه كنز ، (١) .

١٦ — سئل « احمد ابن المدبر » صاحب خراج مصر في أول ولاية احمد بن طولون ، عن مصر فقال :

« كشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها ، لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا » .

١٧ — ويقال وصفها « عمرو بن العاص » للخليفة « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه بقوله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء (٢) ، وشجرة خضراء ؛ طولها شهر ، وعرضها عشر (٣) ؛ يكتفُها جبل أغبر ، ورمل أعفر ؛ يخط وسطها نيلٌ مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان بجرى الشمس والقمر ، له أوانٌ يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها — حتى إذا ما أضلختم بحاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض ، إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل في زيادته ، نكص على عقبيه ، كأول ما بدأ في جريته ، وطما في درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملّة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨١

(٢) سوداء - ولعله يشير إلى لون طينها الخصب

(٣) لعل المراد عشرة أيام .

الأرض ، ويبدرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم
 ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدم (١) — فاذا احدث الزرع وأشرق ،
 سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى — فبينما مصر يا أمير المؤمنين أولوة بيضاء ،
 إذا هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة رقشاء ،
 فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد ويَنَمِّيها ، ويقر قاطنيها
 فيها (٢) ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمره إلا فى
 أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها — فاذا تقرر
 الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى
 يوفق فى المبدأ والمآل . (٣)

* * *

(١) لعله يشير بذلك إلى بغى الروم واستنزافهم أموال الأهاليين - راجع ص ٢٥/٢٦
 (٢) لعل فى ذلك إشارة إلى هجر الناس أراضيهم فى العصر الرومانى هربا عما كان مفروضا عليهم
 من الضرائب المبهظة .
 (٣) راجع ص ٥٧/٥٨ — وهذا الكتاب محل شك كبير .

الملحق الثاني

في ذكر بعض الولاة وأصحاب الخراج والقضاة
من مرت أسماءهم بالبحث

السلطة العليا	الوالي	صاحب الخراج	القاضي
الخلفاء الراشدون			
عمر	عمرو بن العاص ٦٤٠ م — ١٩ هـ	(الوالي)	قيس بن أبي العاص كعب بن يسار
عثمان	عبدالله بن سعد بن أبي سرح ٦٤٤ م — ٢٥ هـ	سليم بن عثر التميمي	عثمان بن قيس
علي	قيس بن سعد بن عباد ٦٥٦ م — ٣٧ هـ	_____	_____
الأمويون			
معاوية	عمرو بن العاص ٦٥٨ م — ٣٨ هـ	(الوالي)	سليم بن عثر التميمي
معاوية	مسلمة بن مخلد ٦٦٧ م — ٤٧ هـ	(الوالي)	_____
مروان - عبد الملك	عبد العزيز بن مروان ٦٨٥ م — ٦٥ هـ	(الوالي)	بشير بن النضر
عمر بن عبد العزيز	أيوب بن شرحبيل ٧١٧ م — ٩٩ هـ	حيان بن شرحبيل	عبدالله بن عبد الرحمن بن حنيفة
هشام	الوليد بن رفاعه القهقي ٧٢٧ م — ١٠٩ هـ	عبيدالله بن الحبحاب	يحيى بن ميمون الحخار بن خالد
مروان الثاني	الحوثة بن سهيل الباهلي ٧٤٥ م — ١٢٨ هـ	_____	عبد الرحمن بن سالم الجيشاني
العباسيون			
الرشيد	الليث بن الفضل ٧٩٩ م — ١٨٣ هـ	محفوظ بن سليم	اسحق بن الفرات عبد الرحمن (العمري)
	الحسين بن جميل ٨٠٧ م — ١٩١ هـ	_____	_____

السلطة العليا	الوالى	صاحب الخراج	القاضى
الامين	حاتم بن هرثمة ٨١٠ م — ١٩٥ هـ	————	هاشم بن أبى بكر (البكرى)
المأمون	المطلب بن عبد الله الخزازى ٨١٣ م — ١٩٨ هـ ٨١٥ م — ١٩٩ هـ	————	لميعه بن عيسى الحضرى
جند مصر (المأمون)	السرى بن الحكم ٨١٦ م — ٢٠٠ هـ ٨١٧ م — ٢٠١ هـ	(الوالى)	ابراهيم بن اسحق ابراهيم بن الجراح ابراهيم بن الجراح
.	أبو نصر بن السرى ٨٢٠ م — ٢٠٥ هـ	.	.
.	عبيد الله بن السرى ٨٢٢ م — ٢٠٦ هـ	.	.
المتوكل	عنبسة بن اسحاق الضبي ٨٥٢ م — ٢٣٨ هـ	احمد بن خالد	الحارث بن مسكين
.	يزيد بن عبد الله التركى ٨٥٦ — ٢٤٢ هـ	احمد بن المدبر	بكار بن قتيبة
المنز	مزاحم بن خاقان ٨٦٧ م — ٢٥٣ هـ	.	.
.	احمد بن مزاحم ٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ	.	.
.	أرجوز طرخان ٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ	.	.
جند مصر	احمد بن طولون ٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ	ابن المدبر - ابن طولون	بكار
المكتنق	عيسى التوشى ٩٠٤ م — ٢٩٢ هـ	————	محمد بن عبدة بن حرب
الراضى	محمد بن طفج الأخشيد ٩٣٤ م — ٣٢٣ هـ	(الوالد)	محمد بن احمد الحداد محمد بن الحسن بن أبى الشوارب الحسين بن أبى زرعة

الملحق الثالث

في بعض من سكن مصر

من الأعراب (١)

جذام من قدماء العرب الذين قدموا مصر مع عمرو بن العاص. وكانت لهم عدة أقطاعات منها «هريبط» وتل بسطة، «ونوب». وفي جذم عدة أبطن وأنخاذ وعشائر، فمن بطونها بنو ضُبَيْب، ومن أنخاذ ضُبَيْب: بنو سويد وبنو زيد وبنو بعجة، وهلبا سويد، وهلبا مالك، وهلبا بعجة، وبردة ورفاعة ونايل، وبنو مسعود، وبنو الوليد وبنو منظور، وبنو قرّة الذين كانوا بالبحيرة عند ما نزلتها «سنبس» في العصر الفاطمي، وكذلك بنو ردّاد. ومنهم بنو كحيل بن قرّة. وكانت مساكن جذام بالخوف (الشرقي) عامة، وبين منية غمر وزفيتا خاصة، وكان فسادهم كثيرا، ومنهم الوزير «شاور»، واليه ينسب «بنو شاور» كبار منية غمر على أيام المقرزي، ومنهم بنو عبد الظاهر وأهل «برهمتوش»، ومن نسل جذام «بنو عبيد» الذين سكنوا بحرى الخوف الشرقي إلى ما يلي اشموم، وكانت فزارة بنى سعد تسكن تل طنبول حتى نوب طريف ومنهم، عشائر «بدقدوس» و«دمريط» وضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية. ومن جذام ولحم جماعة سكنوا بالقرب من «الاسكندرية» ونزلت قيس في خلافة هشام بن عبد الملك الخوف الشرقي، أحضرهم

(١) عن البيان والأعراب للمقرزي، والقضاء والولاية للكندي

باذن من الخليفة، صاحب الخراج عبيد الله بن الجحباب، وزاد عدد هؤلاء في ولاية الحوثة الباهلي .

ونزل « أولاد الكنز » من ربيعة صعيد مصر، زمن المتوكل العباسي . وانتقلت بطون من « قريش » الى الاشمونين والدقهلية، وسكنت « جهينة » حول أسيوط ومنفلوط، ونزل « بنو كلاب » بالفيوم وسكنت طوائف من « فزارة » اقليم الغربية وقلوب . وسكن قوم من « نصر بن معاوية » من هوازن حول « تنيس » ودمياط . وانتشروا فيما بعد في أسفل الأرض . وكانت سنبس تسكن فلسطين وجوار غزة ، وهناك اشتدت وطأتهم على ولاية مصر ، وشق أمرهم ، فاستدعاهم الوزير الفاطمي أبو محمد الحسن ابن علي بن عبد الرحمن « اليازوري » وأقطعهم البحيرة ، وكان بها اذذاك بنو قرة . وفي حكم عز الدين ايبك التركمانى من المماليك البحرية رفض بنو قرة الاعتراف به وحاربوه ، ولكن الترك هزموهم ، وطاردوهم الى سخا في الغربية ، ومن ذلك الحين ذل هؤلاء وتفرقوا في اقليم الغربية مختلطين ببني نصر وغيرهم من ضرب في هذه الانحاء من عرب الحوف الشرقى الذين عبروا النيل وانساحوا في بطن الريف .

ونزلت « بنو هلال » في أسوان ، كما نزلت بطون من « لواته » البهنسا والجيزة والمنوفية .

وسكن « المروانيون » تنده وما حولها ، أما « بنو سهم » من ولد عمرو ابن العاص ، فقد سكنوا القسقاط ، وتفرقوا بالصعيد بعد ذلك . أما « كنانة » ، فقد نزل منهم فريق بجهة « ساقية قلته » وما يليها .

ونزل فريق «من الأنصار» من الأزد، بصعيد مصر، ومن ذراريهم «بنو محمد وبنو عكرمة» وكانوا يسكنون شمال منفوط .

وسكنت «عوف» من قيس عيلان في الصعيد، وعلى الأخص في الفيوم، كما نزلوا البحيرة وبرقة حتى بلاد المغرب .

وسكنت من «لخم» بطون كثيرة «بالبرالشرقي» من بلاد مصر، ومنهم بنو مليح وبنو نيهان وبنو عبس وبنو كريم وبنو بكر، وديارهم من طارف بيا إلى منحدر ديرا الجيزة؛ وبنو علي وبنو سالم وبنو مدج وبنو ريس وديارهم من دير الجيزة إلى ترعة صول؛ وبنو مسعود وبنو جرير وبنو نصار ومسكنهم ساحل اطفيس؛ وبنو عدى، وهم بنو موسى، ومسكنهم فيما يلي ساحل اطفيس؛ وبنو غنيم وكانوا يسكنون العدوية ودير الطين، وبنو عمرو وبنو حجرة وكانوا يسكنون حلوان وطرا .

وسكنت فرق من «لواته» ومن «فزارة» ومن «زنتارة» ومن «هواره» اقليم المنوفية .

وسكن عرب «الحماسة» وأصلهم من «قريش» اقليم الدقهلية (المرتاحية) وسكن «بنو هلال» بن عامر بن صعصعة بن معاوية من هوازن، بلاد الصعيد إلى عذاب — ومنهم بأخميم «بنو قره» وبساقية قلته «بنو عمرو» . ومن بطونهم بنو رفاعه، وبنو مجير، وبنو عزيز، ومنهم بأصفون بنو عقبة وبنو جميلة .

ونزل «بنو جعفر» من بطون «قريش» بالصعيد الأعلى. وهم من نسل جعفر الطيار بن أبي طالب .

الملحق الرابع

في منهج البحث ومراجعته

١ — البحث :

لما كان الغرض الأساسي من هذا البحث هو تتبع الحوادث التي انتهت بتكوّن الأمة المصرية الإسلامية — وهي الأمة التي تكونت تدريجاً ووضعت شخصيتها خلال قرنين ونصف قرن من الفتح العربي — ولما كان همي من هذه العجالة هو الإفصاح عن العوامل التاريخية والاجتماعية التي عملت على تكوين الأمة المصرية الإسلامية — فأنتى أجد نفسي مضطراً إلى الوقوف بالبحث عند الحد الزمني الذي أعتقد أن الأمة التي أبحث في نموها ، قد تكونت فيه وبرزت — وفي يقيني أن ذلك تم واكتمل في العصر الطولوني — لهذا انتهيت البحث عند هذا الحد .

٢ — الاستطرادات

غير اني حرصت ألا أقف بالقارئ عند « تمام التكوّن » — بل أردت أن أصـل له الحوادث وصيلاً سريعاً ، بكلام يحمل يصل الماضي بالحاضر على نحو موجز يحفظ الفكرة التي أعالجها ماثلة في الذهن ، حتى يقدر لي أن انهض بالجزء الثاني من البحث — وهو الجزء الذي تكوّن هذه الاستطرادات نواته ، أو بعبارة أخرى ، هو الجزء الذي يبسط هذه الاستطرادات بسطاً من شأنه زيادة الإفصاح عن قوميتنا المصرية الإسلامية .

٣ — الفكرة

ومن الحق على أن أقول أن مقالا كتبه عبد الملك حمزه بك ، ومقالا آخر كتبه الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وعددا من المحاضرات التي القاها الأستاذ عبد الحميد العبادي على طلبة دبلوم معهد الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول قبل عام ١٩٣٨ في تكون الأمة المصرية الاسلامية — قد أوجت إلى جميعها بكتابة هذا البحث .

وأنا بلا جدال ، متأثر بالآراء الناضجة التي أدلى بها الاساتذة الأفاضل متأثراً يبدو لهم ، أكثر مما يبدو للقارئ — ولا عجب ، فأنا تلميذ «أبي حديد» وتلميذ «العبادي» — فأخذي عنهما ، وهضمي لأرائهما ، وانتفاعي بها ، ليس أمراً غريباً ، سيما — وأنا بأستاذي ، وبأسلوتهما في البحث ، جد معجب ، وجد مشغوف .

٤ — قوة دفعها

ولاشك عندي أن في الفكرة طلاوة ، وأن في البحث حلاوة ، لعلمها سبب ما في الموضوع من قوة دافعة على الكتابة — ولا أدري ، أهو تأثيري بالفكرة ، أم تأثيري بحيوية هذه الأمة ، أم هو اعتزازي بحسن بلائها وشدة مراسها ، أم هي نعمة الاسلام على هذه الديار — لا أدري حقاً ، أي هذه الدوافع جميعاً ، هو الدافع القوي على انجاز هذا البحث .

وسواء كان الدافع هذا أو ذاك ، فأني احمد الله الذي وفقني الى اخراج الشطر الأول من قصة القومية المصرية الاسلامية .

٥ — مراجع البحث

وليس البحث في حاجة الى كثرة المراجع ، إذ هو مستند في الكثير الغالب على حقائق التاريخ ، وهي معروفة وليست محل أخذ ورد — وهو فوق ذلك معتمد على مدى انتفاع الباحث بالحقائق التاريخية ، ولا سيما ما يمس منها الناحية الاجتماعية — فهو في الواقع ليس الا ترجمة لبعض حقائق التاريخ إلى لغة الاجتماع .

والعبرة فيه بتفهم مدى فعل الحوادث التاريخية ، وفعل البيئة ، وأثر الشقافة الخاصة ، في تكوين الرأي العام والمثل العليا ، وتعاون هذه العوامل جميعا ، على خلق الجماعات خلقاً جديداً او صقلها وتصفيها من الشوائب . ومن المراجع ما هو أصلي ، ومنها ما هو آخذ عن المراجع الأصلية — ومنها ما أثبتته في ذيل الصفحات ، ومنها ما لم أثبته — اذ كانت الفائدة منه عامة مشكورة ، وأن كانت غير منظورة .

وفيما يلي ثبت بجميع المراجع التي كان لها الفضل ، في انجاز هذا البحث :

المراجع العربية

- ١ - ابراهيم جمعه جامعة الاسكندرية فى العصر الاغريقى
الرومانى .
- ٢ - ابن خلدون المقدمة
- ٣ - ابن عبد الحكيم فتوح مصر واخبارها (مجلس
المعارف الفرنساوى الخاص بالعادات
الشرقية سنة ١٩١٤ - طبعة هنرى ماسيه)
- ٤ - ابن النديم الفهرست (طبعة ليبزج ١٨٧٢)
- ٥ - أبو المحاسن بن تغرى بردى ... النجوم الزاهرة - الأجزاء من ١ - ٧
طبعة دار الكتب المصرية .
- ٦ - بطر (الفريد) فتح العرب لمصر (تعريب محمد فريد
أبو حديد)
- ٧ - حسن ابراهيم حسن تاريخ عمرو بن العاص
- ٨ - زكى محمد حسن كنوز الفاطميين (طبعة دار الكتب
المصرية ١٩٣٧)
- ٩ - بعض التأثيرات القبطية فى الفنون
الاسلامية (من مطبوعات جمعية
بحر الفن القبطى - ١٩٣٧)
- ١٠ - الفن الاسلامى فى مصر - الجزء الأول
(مطبعة دار الكتب المصرية)

- ١١ - سليمان احمد حزين البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام - القاهرة ١٩٤٢
- ١٢ - السيوطى حسن المحاضرة - طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ١٣ - شغوات (نحلة بك صالح) تاريخ الخلفاء (طبعة هندية ١٩١٣)
- ١٤ - طه حسين بك مستقبل الثقافة فى مصر (طبعة مطبعة المعارف بالقاهرة)
- ١٥ - عبد الحميد العبادى سلسلة محاضرات الأستاذ عبد الحميد العبادى بالجامعة المصرية قبل عام ١٩٣٨
- ١٦ - فثيت (جاستون) دليل موجز لدار الآثار العربية ١٩٣٩
- ١٧ - كرد على الاسلام والحضارة العربية (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤)
- ١٨ - الكندى كتاب الولاة والقضاة (طبعة جست بيروت ١٩٠٨)
- ١٩ - لجنة التاريخ القبطى تاريخ الامة القبطية - طبعة ١٩٠٠
- ٢٠ - المقرئزى الخطط (طبعة بولاق) - البيان والأعراب عما بأرض مصر من
- الأعراب (طبعة ابراهيم رمزى بك)
- ٢١ - محمد كامل حسين فى الأدب المصرى الاسلامى .
- ٢٢ - ناصر خسرو سفر نامه
- ٢٣ - الماوردى الأحكام السلطانية (مطبعة السعادة)

المراجع الأجنبية

1. Ameer Ali (S.) Spirit of Islam.
2. Arnold & Grohman . . The Islamic Book.
3. Butler (A.) Islamic Pottery.
4. Butler (A.) Arab Conquest of Egypt.
5. Butler (A.) The Ancient Coptic Churches of Egypt.
6. Breasted. (J.H.) Ancient Times.
7. Chapot (Victor) . . . L'Egypte Romaine.
8. Creswell (K.A.C.) . . Early Muslim Architecture.
9. Diehl (Charles) L'Egypte Chretienne et Byzantine.
10. Diehl (Charles) La Civilization Byzantine au VI siècle.
11. Gayet L'Art Copte.
12. Hanouteaux Histoire de la Nation Egyptienne.
(L'Epoque Ptolemaïque et Romaine.)
13. Hitti (Ph.) History of the Arabs (Macmillan, London,
14. Kendrick (A.F.) Catalogue of Textiles from Burying
Grounds in Egypt, V. III, Coptic Period.
15. Kendrick (A.F.) Catalogue of Mohammedan Textiles of
the Mediaeval Period, London 1924.
16. Lane-Poole (S.) A History of Egypt in the Middle Ages.
17. Le Bon (G.) Les Premières Civilisations.
18. Milne (J.) A History of Egypt under the Roman Rule.
19. Mayerhoff (M.) La fin de l'Ecole d'Alexandrie après
quelques auteurs Arabes, (Roma, 1932).
20. Pauty (Cat. Gén. du Musée Arabe) : Les Bois
Sculptés.
21. Ross (D.) The Art of Egypt through the Ages
(London, 1931).
22. Smith (Eliot) The Diffusion of Culture.
23. Wells (H G.) A short History of the world.
24. Wiet (G.) Histoire de la Nation Egyptienne, IV,
(L'Egypte Arabe).

الصور

الصفحة	الصورة
صورة الغلاف	مسجد قايتباي ، من أروع مباني المماليك (في القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي .)
٩٦	قطعة من النسيج الطولوني عليها كتابة كوفية (القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي .)
١٠٦	مأذنة المسجد الطولوني (الثالث الهجري — التاسع الميلادي .)
١١٥	جزء من الألواح الخشبية التي كانت تحلى حوائط القصر الفاطمي الغربي عليها مناظر لهُو وصيد (الرابع الهجري — العاشر الميلادي .)
١١٧	واجهة مسجد الأمر الفاطمي ، وهو المعروف بالجامع « الاقر » بالنحاسين (السادس الهجري — الثاني عشر الميلادي .)
١١٩	(فوق) مسجد السلطان حسن — مثال رائع لفن العمارة المملوكي (القرن الثامن الهجري — الرابع عشر الميلادي .)
	(تحت) شمعدان من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكي .
١٢٠	مشكاة زجاجية محلاة برسوم « المينا » عليها « رنك » مملوكي . هو السيف .
١٢١	منبر جامع من العصر العثماني .

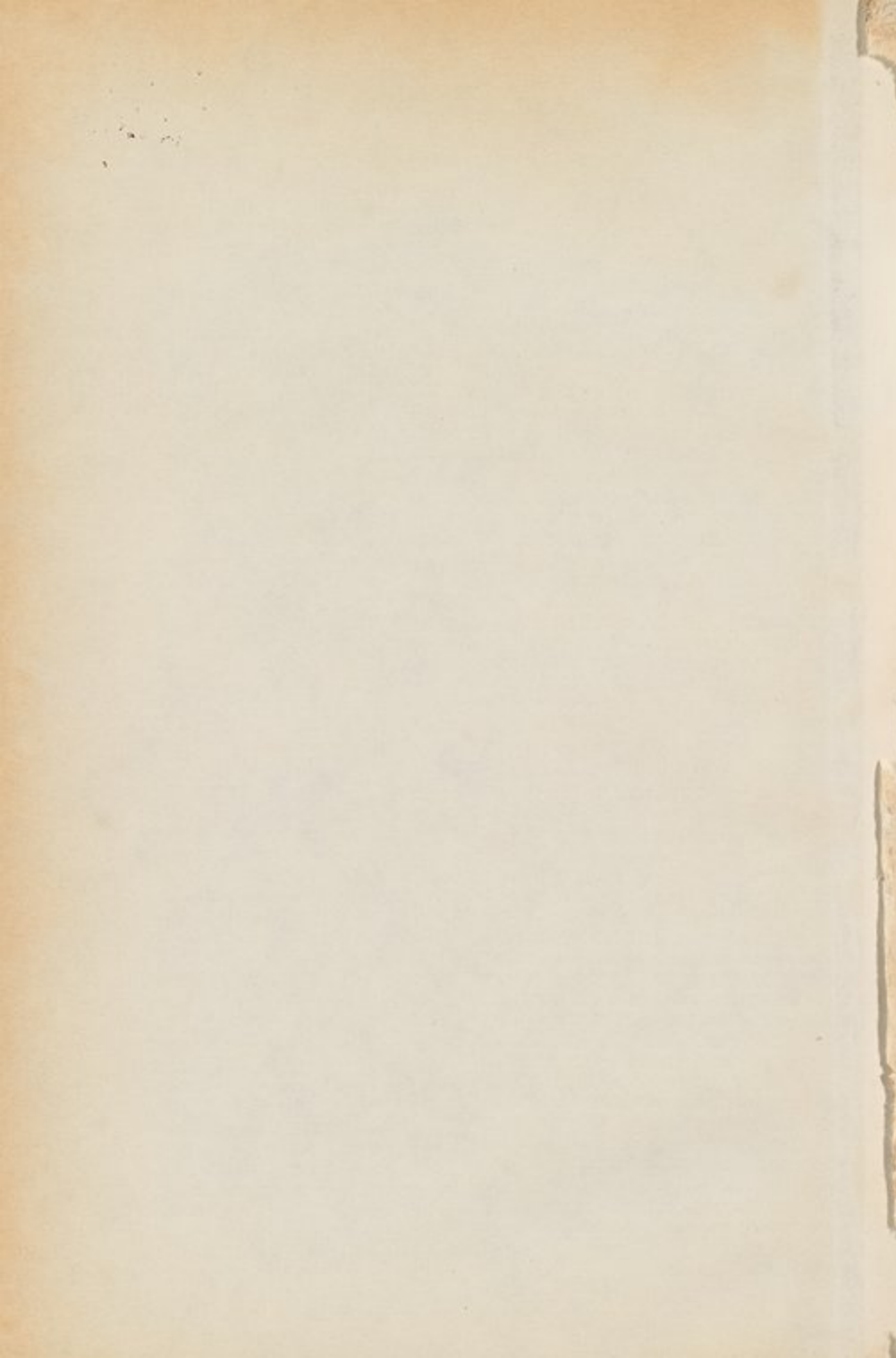
تصويبات

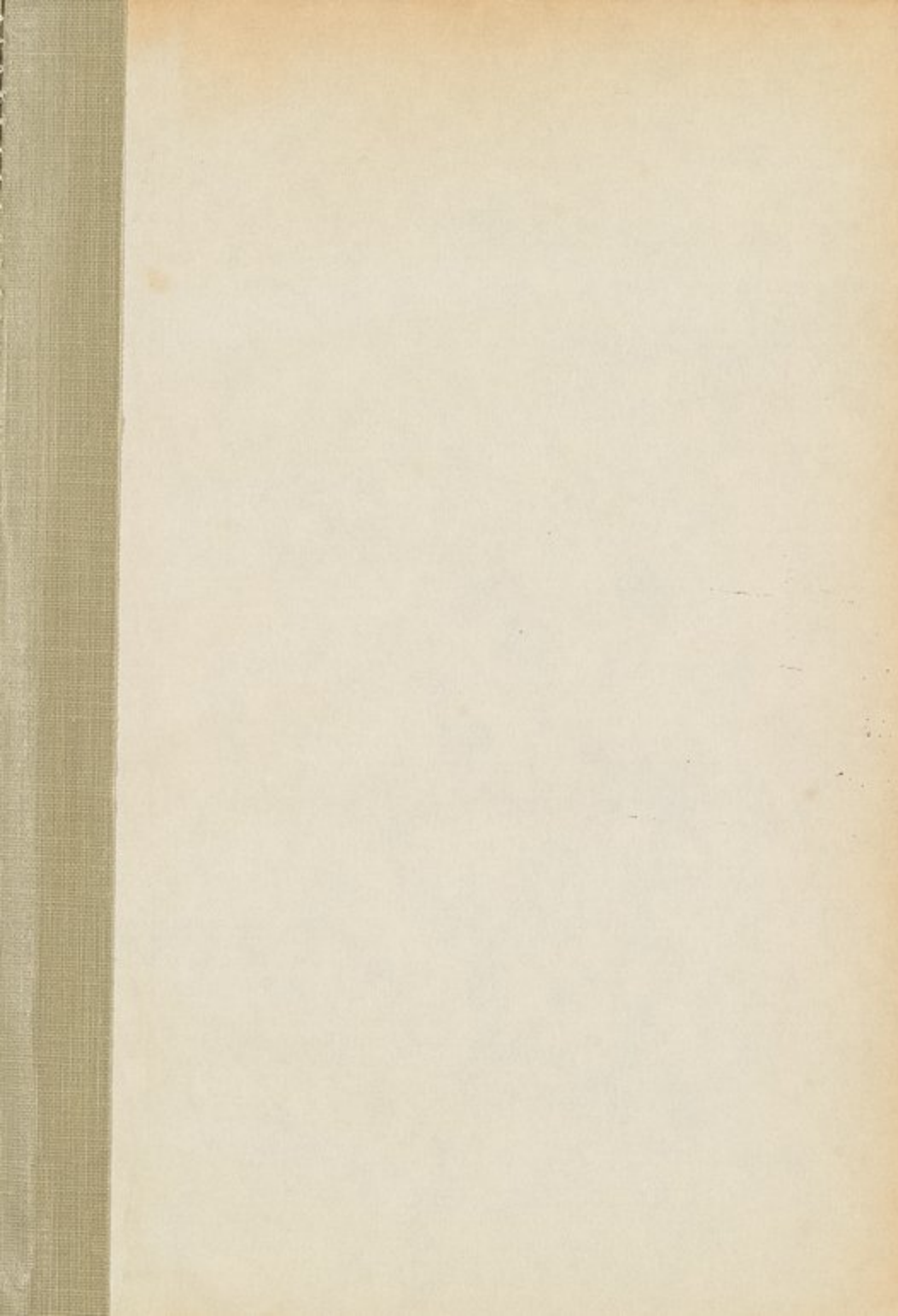
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢	١٣/١٢	وصفا نلمس فيه بشاعة الحكم	وصفا نلمس فيه بشاعة أساليب الحكم
٣٢	٩	بدعوى جرئمة	بدعوى جرئمة
٤٤	١٤	وعزرتها	وعززتها
٥٢	٣	الوليد بن رفاعة الفهرى	الوليد بن رفاعة الفهمى
٥٢	٦٠٤	ابن الحجاب	ابن الحبحاب
٥٣	١٠	الفهرى	الفهمى
٥٧	١	والمعتوهين والمساكين	والمعتوهون والمساكين
		والعاجزين	والعاجزون
٨٩	١٦	والملك الصالح من ملوك	والملك الصالح وغيره من ملوك
١١٢	١	تحلبها	تحلبها
١٤٣	١٢	المعلى بن المعلى	المعلى بن العللى
١٤٤	٢٠	القاضى العمرى	القاضى عبد الرحمن العمرى — السكندى :
			القضاء والولاية ص ٣٩٤ / ٤٠٠
١٤٧	١٣	عن المناطق الهذر	عن المنطق الهذر
١٤٩	١٢	بشكر	يشكر
١٥٢	٤	وفى يقول	ويقول
١٥٤	٦	عربية	عربية



PROPERTY OF
PRINCETON UNIVERSITY
LIBRARY







LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074082643

(Arab)

DT70

.J8